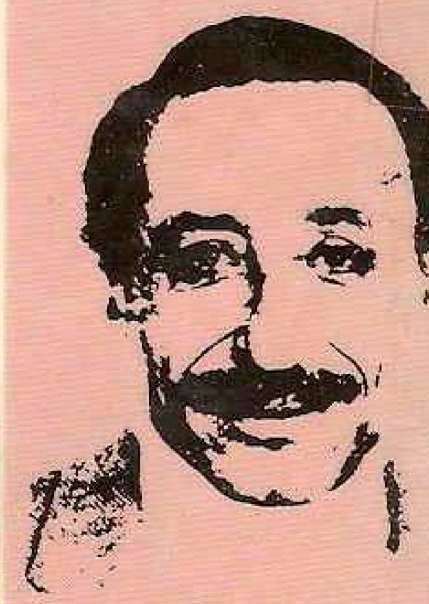
صالح مرسي



الأعمال الكاملة

كنت جاسوساً في اسرائيل

رأفت الهجان

الطبعة الثانية

٢

([illegible])

صلاح مرسى

الفصل الأول

لقاء فى مدينة محترقة

قال عزيز الجبالى لهيلين سمحون فى صباح اليوم الثالث : إن القصة تدخل الأن مسارا محفوفاً بالمخاطر ، واذا كان الفتى قد غادر مصر فى بداية النصف الثانى من عام ١٩٥٥ ، فإن مصر كانت تنتظر عاماً حافلاً وخطيراً ومليئاً بالأحداث ، لم يكن أحد ينتظر أو يتوقع تلك المعارك الضارية التى أصبح على مصر أن تخوضها بعد عام وبعض عام دفاعاً عن كرامتها واستقلالها وسيادتها على أرضها ، بل ووجودها كدولة ذات كيان واعتبار ودور قُدر لها أن تلعبه فى تلك الحقبة من تاريخ العالم . . . وعلى كل ، فإن الفتى عندما أبحر على ظهر سفينة الركاب الايطالية « اسبريا » لم يكن مطلوباً إليه إن يصنع شيئاً سوى بناء ساتره وتأمين نفسه ، وبالرغم من ذلك فلقد صنع . . لم يكن مطلوبا إليه أن يتسمع أو يتسقط الأخبار والأسرار أو يعرض نفسه ومشروعه للخطر . . . ولكنه ـ وعندما كان معرضاً لخطر حقيقى ـ لم يستطع الا أن يقوم بواجبه ضارباً عرض الحائط بأمنه وسلامته وحياته كلها !

ولقد قال الفتى فيما بعد : إنه لم يستطع الا أن يفعل ذلك ، فعندما أمم جمال عبد الناصر قناة السويس ، أدرك ـ وقد كان هناك فى قلب بيت العدو ـ حقيقة مايضمرونه تجاه مصر ، لم يكن لاسرائيل فى القناة

ناقة ولاجمل ، وبالرغم من ذلك ، هاجت وماجت ولعبت تحت السطح العاباً خطرة سرعان ما تكشفت ، وكانت صدورهم تغلى بالحقد والغل وقلوبهم ترتجف رعباً وخوفاً من أن تصبح مصر قوية ! !

. . . .

. . . .

كانت لحظات الإبحار عصيبة عليه ، ولقد حكى بعد سنوات ماحدث له فى تلك اللحظات ، قال : إنه لم يستطع أن يحبس دمعه رغم كل محاولاته لحبس الدمع ، كان قد غادر مصر قبل ذلك مرات فلم تدمع عيناه ، لكنه ، فى تلك المرة ، راح يتساءل ـ وعيناه تتشبثان بالأرض التى كانت تبتعد عنه لحظة بعد لحظة ـ إن كان قد قدر له أن يرى مصر مرة أخرى . . . أم أن هذه هى أخر مرة يستنشق هواءها ، وتنعم عيناه برؤية أرضها . . . قال فيما بعد محاولا التعبير عن نفسه : إن حب مصر ليس كحب الأوطان ، فهو نوع من العشق الخفى العسير على التفسير . . . تساءل والسفينة تبتعد إن كان سيرى شريفة مرة أخرى ، طلب إليها ـ بينه وبين نفسه ـ أن تسامحه فذلك هو قدره . . . قال : إن دموعه كانت تتساقط وهو يقف وحده فى الممشى العلوى للسفينة ، بينما ضحكات اليهود وصيحاتهم تأتيه من السطح السفلى مجلجلة بالسخرية من وطنه ومواطنيه !

وعلى كل ، فلقد استطاع ـ ولم يكن أمامه طريق آخر ـ أن يتغلب على آلامه ومخاوفه التى كانت لاتزال كامنة متوارية أمام طوفان الحب الذى تدفق فى صدره نحو بلده . . . استطاع أن يعود الى رفاق الهجرة من اليهود فى اليومين اللذين قضاهما على ظهر السفينة ، وأن يندمج

معهم حتى وصلت الى نابولى . . . كان لابد أن يدرب نفسه على سماع السباب وهو ينهال على وطنه ، والغل وهو ينهش ناسه . . . غير أن الاحداث راحت تتوالى مع وصول السفينة الى الميناء الايطالى الشهير ، كان هناك عدد لاباس به من مندوبى الوكالة اليهودية فى استقبال المهاجرين ، وكان الاستقبال دون شك حافلاً ، غير أن استقباله هو بالذات كان ذا طبيعة خاصة !

« السيد ياكوف بنيامين حنانيا . . . أليس كذلك ؟ ! »

لم يكن قد غادر السفينة بعد ، كان لايزال يقف فوق السطح بجوار حقيبته الوحيدة وسط زحام الركاب وصيحاتهم وحركة البحارة ونداءاتهم . . . انتفض ملتفتا ليواجه رجلاً أسمر الوجه ربع القوام أشيب الشعر يقف بجواره شاب أشقر قوى العضلات قاسى الملامح . . . هاهم يأتون اليه باسمه الخفى متربصين أو مخدوعين وعليه أن يحتفظ بيده فوق ايديهم منذ البداية ومهما كانت نواياهم !

« ماذا استطيع أن أقدم لكما ؟ ! »

قال الرجل فى أدب مقدماً نفسه :

« صموئيل عازار ! »

ثم التفت نحو زميله الشاب :

« وهذا زميلى شيمون بن جور ! »

فى صرامة قال الفتى :

« وأنا ديڤيد شارل سمحون ! »

ابتسم الرجل ابتسامة العارف ببواطن الأمور ، ثم قال وكأنه يطمئنه :

« نحن من الوكالة اليهودية ! »

تلفت الفتى حوله متظاهراً بالقلق مغمغماً فى سخرية :

« إن كنتما كذلك حقاً ، فلا بد أنكما تعرفان أن السفينة مليئة بغير اليهود ! »

تبادلا نظرة دهشة فأردف فى حسم غاضب :

« إن فى مصر رجلاً أعطانى اسمه ، وزور هناك أوراقاً رسمية كى يساعدنى على الخروج . . ولو اشتم أحد من المصريين حقيقتى ، فلست أدرى ما الذى يمكن أن يفعلوه بهذا الشيخ المسكين وزوجته وابنتيه ؟ ! »

راح ينظر اليهما متلذذاً بالحرج الذى أوقعهما فيه . . . تمتم الرجل معتذراً :

« الحق معك سيد سمحون ، لكننا جئناكى نرحب بك ! »

رد فى اقتضاب :

« شكرا ! »

عاد الرجل الى الحديث فى تزلف :

« اعتقد أنك ذاهب الى اسرائيل ؟ ! »

شدد الفتى على نغمة السخرية :

« وهل هناك مكان آخر ؟ ! »

تهلل وجه الرجل وهو يهتف فى صوت خافت .

« نحن هنـا فى خدمتـك . . . فإن كانت لديك اية رغبـات فإنه يسعدنا أن نلبيها ! »

« ليس لى سوى رغبة واحدة ، أن اقضى بضعة أيام فى راحة تامة ! »

ولقد فهما مايقصد ، قالا إنهما حجزا له غرفة فى فندق ، وأن تذكرة سفره إلى اسرئيل جاهزة ودون أى مقابل وما عليه إلا أن يحدد موعد سفره . . . صحباه إلى فندق ، وكان أول ما فعله أمامهما هو تقديم الشيك الـذى أعـطاه إياه السيد سمحـون فى الاسكندرية إلى إدارة الفندق راجياً صرفه بأقصى سرعة . . .

ودع الرجلين وصعد الى غرفته بعد أن أفهمهما أنه ليس فى حاجة الى أى ازعاج فلقد كانت أيامه الأخيرة فى مصر شاقة . . . ولقد رد الشاب قائلا : إنهما يفهمان مايقصد جيدا ، وأنهما يعتذران مرة أخرى عن الخطأ الذى وقعا فيه دون قصد ، وأن كل ما يبغيانه أن يسهلا له الإقامة فى نابولى ثم السفر الى اسرائيل ، قال الشاب هذا فأردف زميله :

« ولكن هناك نقطة أخرى نطلب مساعدتك فيها ! »

« مساعدتى ؟ ! »

قال الرجل :

« لقد بلغنا أن المجموعة التى خرجت معك من مصر فى حاجة إلى من يقنعهم ! »

« يقنعهم ؟ ! »

« نعم . . . يبدو أن بعضاً منهم قرروا السفر الى أمريكا اللاتينية ، والبعض الآخر ـ ربما لارتباطات عائلية ـ قرروا الهجرة الى فرنسا أو الولايات المتحدة ! »

فى استنكار حقيقى ودهشة غير مصطنعة هتف الفتى :

« ماهذا الذى تقوله ؟ ! »

« للأسف . .... إنها الحقيقة ! »

لم يكن الفتى قد ناقش مع أى من رفاق الهجرة مسألة الذهاب الى اسرائيل أو الى أية دولة أخرى . . . وبالرغم من حديث محسن معه فى الموضوع ، فلقد كان يتصور أنهم جميعا ذاهبون إلى أرض المعاد !

« ألم يخرجوا من مصر كى يذهبوا الى اسرئيل ؟ ! »

هكذا تساءل فى عجب ، فهز الرجل رأسه نفيا ، ونظر إليه كمن يستنجد به ، فقال الفتى وهو يمضى نحو مصعد الفندق :

« على كل فمازال أمامنا بعض الوقت ! ! »

. . . .

. . . .

صعد إلى غرفته وكان عليه أن يستعد الآن للقائه الأول - خارج مصر - مع مصر ! ! . . . عليه أن يستعد للقاء بعد يومين مع ذلك الشاب الأسمر الشديد الأناقة اللامع الشعر الذى جاء به محسن ذات يوم إلى مسكنه بالقاهرة ، عليه أن يستعد للقاء مركب ومعقد مع « مصطفى عبد العظيم » . . . وكان عليه - قبل كل شىء - أن يعد نفسه للقفز الى بؤرة النار ! ! . . . . للسفر الى اسرائيل !

حاول أن ينام فلم يستطع !

حاول أن يستريح دون جدوى !

بدأت الشكوك تداعبة فى عنف ، فأخذ يدخن وفى رأسه سؤال يتردد بلا انقطاع : ألا يكون الاسرئيليون قد كشفوا أمره دون أن يشعر هو ومحسن ؟ ! . . . من الواضح أنهم يعرفون عنه كل ما أشاعه عن نفسه وسط اليهود فى القاهرة ، وليس ذكاء منه أن يكتشف ذلك فعيونهم فى

مصر تمدهم - أولا بأول - بكل شىء . . . فمن يدريه أن عيونا أخرى لايعرفها هو أو محسن قد تجسست وتحسست وعرفت بأمره فقرروا اصطياده ؟ ! . . . ثم ، ألا يكون هذا الترحيب المبالغ فيه نوعا من « جر الرجل » الى اسرائيل حيث يصبح فى قبضتهم هناك وتحت رحمتهم ؟ ! . . . إنه الآن فى أرض ايطالية ، ولابد أنهم يتظاهرون بكل هذا الذى يتظاهرون به حتى يصبح بين أيديهم خالصاً لانتقامهم ، ألا يصبح - والأمر كذلك - كل مايراه من ترحيب واحترام بل وموافقة على كل مايقول أو يقترح وكأنه الأمر الناهى فى عالم لايعرف عنه شيئاً ، أمراً منطقيا الى ابعد الحدود ؟ !

عاش رأفت طوال اليومين التاليين فى عذاب مقيم . . .. ولقد فكر فى التراجع ، فكر - عندما يلتقى بمصطفى عبد العظيم - أن يعتذر ، وكفى الله المؤمنين القتال ورحم الله امرءاً عرف قدر نفسه أيضا . . . لكنه - بالرغم من كل هذه المخاوف التى كانت تعربد فى صدره - كان يندفع فى تمثيل دوره وكأن قوى خفية تدفعه دفعاً الى حيث لايستطيع التوقف أو التراجع !

ولقد كان هذا الموضوع بالذات ، هو أول مافاتح به مصطفى عبد العظيم ، عندما التقى به وسط أطلال مدينة محترقة !!

●●●

فى صباح اليوم الثالث لوصوله إلى نابولى ، اطمأن أنه غير متبوع !

خلال اليومين السابقين بذل جهداً شاقاً فى إقناع يهود مصر بالهجرة الى اسرائيل - !!! - عاود رجلا الوكالة اليهودية الاتصال به وتعاملا معه

كما يحب ويرضى ، عقدا له عدة اجتماعات مع رفاق السفينة الذين غادروا مصر معه ، وكان لكل منهم حجة وارتباط فى أى أرض فى الدنيا عدا أرض « المعاد » . . . بذل كل ما يستطيع من جهد فلم يقنع أحداً منهم سوى « سوسو ليڤى » تاجر الساعات فى ميدان العتبة الخضراء ، ذلك الذى قاسمه رزقه لشهور طويلة . . . شكره مندوبا الوكالة اليهودية على مابذله من جهد فى حرارة وهما يسألانه إن كان فى حاجة الى شىء . . . غمغم متذمراً بأن الشيك لم يصرف بعد ، واذا كان مسحوباً على أحد بنوك سويسرا فلابد أن الأمر يقتضى بعض الوقت ، ولكن يومين مضيا دون أن يأتى رد وهذا كثير ، وعده مندوبا الوكالة بأن كل شىء سيكون على مايرام فى خلال الاربع والعشرين ساعة القادمة .

« ثم إن هناك أمرا أرى أنه بالغ الأهمية ! »

« ماهو سيد سمحون ؟ ! »

« ألا تريان أن اهتمامكما الشديد بشخصى قد يلفت انظار البعض هنا ؟ ! »

« ما الذى تقصده بالضبط ؟ ! »

« ألا يكون هذا الاهتمام خيطا يوصل المصريين ـ ولابد أن لهم عيونا هنا ـ الى حقيقتى ؟ ! »

ابتسم الشاب ذو الملامح القاسية وهو يقول ساخراً :

« لاتخش شيئا ياسيدى ، انك هنا فى حمايتنا ! ! »

بدت على ملامحه علامات امتعاض واضح :

« ليس هذا ما أقصده ! »

ارتبك الشاب وهم الرجل بالحديث فاستطرد الفتى :

« أنا لا أقصد شخصى بالذات . . . ففى مثل هذه الأمور أستطيع أن اتصرف كما ينبغى ، ولعلكما تعرفان أن لى مع المصريين جولات عديدة ! »

صدّقا على حديثه بكلمات مختلطة فداخله السرور .

« ان ما أخشى عليه ـ مرة أخرى أيها السيدان ـ هو هذا الشيخ الذى اعطانى اسمه فى الاسكندرية ! »

تبادلا النظرات وكانا يبدوان فى حيرة .

« إن له ابنتين فى عمر الزهور ! ! »

أراد الرجل أن يحسم المناقشة فقال :

« وما الذى تطلبه منا سيد سمحون ؟ ! »

« أن تعاملانى على أنى ديڤيد شارل سمحون وليس ياكوڤ بنيامين حنانيا ! »

« مرة أخرى لابد لنا من أن نعترف بأن الحق معك ! »

وهكذا اطمأن رأفت الهجان الى ابتعاد الوكالة اليهودية عنه ، راح يرقبهما وهما ينصرفان مهرولين كطفلين أذنبا ، تيقن بقية اليوم من أنهما أطاعا توجيهاته . . . فى صباح اليوم التالى غادر الفندق فى العاشرة ، قام بجولة حول المكان فازداد اطمئنانه ، استقل سيارة أجرة حتى وسط المدينة ، دلف الى احد المقاهى الشهيرة واحتسى فنجانا من القهوة الايطالية باللبن ـ كابوتشينو ـ مسحت عيناه المكان فى يقظة ، أشارت الساعة فى معصمه الى اقتراب موعد المكالمة التليفونية التى كان عليه أن يجريها فى صباح اليوم الثالث لوصوله الى الاراضى الايطالية ، غادر المقهى وسار فى الشارع كمن يتسكع على غير هدى ، مربكشك تليفون

كان قد رصده قبل دخوله إلى المقهى ، توقف كأنه تذكر شيئاً وأخرج نوته تليفوناته الصغيرة وفتحها وراح يقلب صفحاتها حتى توقف عند صفحة لكنه لم يقرأ شيئا ، كمن وجد الرقم دلف الى الكابينة ، كان يحفظ الرقم عن ظهر قلب وكان ممنوعاً عليه أن يدونه ، أدار القرص فدق الجرس على الطرف الآخر دقة واحدة :

« برونتو ! »

« بونجورنو ! »

« بونجورنو سنيور ! »

بالعامية المصرية وقلبة يقفز إلى حلقه قال :

« ايه رأيك فى أكلة سمك ؟ ! »

جاءه الرد المتفق عليه بصوت كان مرحباً مرحاً :

« بربون حجر ؟ ! »

هتف الفتى :

« عز الطلب ! »

« اضبط ساعتك ! »

نظر فى ساعة يده فجاءه الصوت من الطرف الآخر :

« الساعة دلوقت احداشر وست دقايق بالضبط ! »

« تمام »

« الساعة تلاتة ونص فى محطة السكة الحديد ! »

هم بالحديث ، قفزت كلمة « مع السلامة » الى لسانه وكاد ينطق بها لكنه فى اللحظة الأخيرة أمسك لسانه وأغلق فمه كما أغلق الخط بيده الأخرى وقلبه يخفق فى عنف . . . ولو أنه نطق حرفا أو قال « مع السلامة » كما تعود الناس أن يقولوا لفشل اللقاء . . . هذه هى

التعليمات وعليه أن ينفذها بدقة ودون خطأ واحد فأية حياة تلك التى هو مقدم عليها ؟! ! !

الكلمة لها مدلول آخر ، والساعة ليست هى ، والكلام غير الكلام . . . فالسؤال عن أكلة السمك هو سؤال عن اللقاء ، والجواب بأنه نوع من بربون الحجر يعنى أن اللقاء سيتم ، ومحطة السكة الحديدية هى قمة جبل بركان فيزوف ، والثالثة والنصف هى الثانية عشرة والنصف و . . . و . . . وأبسط الأخطاء من الممكن أن يلغى موعداً أو يسبب كارثة ، فماذا . . . ماذا لو أنه ـ دون قصد وبالرغم منه ـ نطق كلمة « مع السلامة » ؟ !

« يبقى الأخ مصطفى مش حاييجى لك فى الميعاد ! »

« ليه ؟ ! »

« حايعرف إن فيه حاجة غلط »

« زى ايه ؟ ! »

بوضوح واستقامة قال محسن :

« زى إنهم يكونوا مسكوك ! »

« الله أكبر ! »

« طبعا حايحاولوا يقرروك . . . مش كده والا ايه ؟ ! »

فى سخرية هتف :

« أمال حايلعبوا معايا طاولة ؟ ! »

« من غير تريقة ياراأفت ! »

اعتذر قائلا إن الموقف يحتمل قفشة !

« لو ده حصل ، انت حاتقاوم فى الأول شوية ، لكن اذا اضطريت انك تقول لهم ، قول كل حاجة ! »

هتف الفتى دهشا :

« طب وبعدين ؟ ؟ »

« حايطلبوا منك انك تمثل الدور معانا وتشتغل لحسابهم ! »

« معقولة ؟ ! »

« اذا طلبوا ده ، وافقهم ! »

« وأخون بلدى ؟ ! »

« طبعا لأ ! »

«أمال أوافقهم ازاى ؟ !»

« ماهو انت لو وافقتهم حايطلبوا منك ان تكمل معانا حسب الاتفاق ، وتطلبنا فى التليفون ! »

« ولما أطلبكم ؟ ! »

« أى مصرى بيتكلم فى التليفون ، بيقول ايه فى آخر المكالمة ؟ ! »

« مع السلامة ! »

«علشان كده ، لو أنهم أجبروك إنك تكلمنا ، وجيت فى آخر المكالمة وقلت مع السلامة ، هم مش حياخدوا بالهم ، إنما إحنا حانفهم ان فيه حاجة غلط ! »

. . . .

. . . .

كان يستعيد حديثه مع محسن ممتاز وهو معلق فى الهواء على ارتفاع بضعة آلاف من الأقدام فوق واد سحيق ، كان جالساً على مقعد صغير معلق بسلك « التليفريك » الذى يتحرك به الى قمة بركان « ڤيزوف » ، فى المقعد التالى لمقعده فتاه مليحة ذات لكنة أمريكية كانت تتصايح خوفاً ومرحاً وهى تنادى عليه وتلوح له وتضحك وتصرخ وحمداً لله أنه لم يخطىء ، تمت المكالمة التليفونية بسلام ولكن هاجساً

جديداً راح يلح عليه : فمن يدريه أن الذى تحدث اليه كان مصطفى عبد العظيم ؟ ، إنه لم يلتق به فى القاهرة سوى مرتين ، ولم يحدثه فى التليفون مرة واحدة ، فقدْ لايكون الصوت صوته ! !

من جديد راح يستعيد احتياطات أمنه وسلامته التى كان عليه أن يحفظ تركيباتها عن ظهر قلب والا يدونها فى نوتة أو ورقة وألا يخطىء فيها أبداً . . . كم ألح عليه محسن وهو يطلب إليه أن يعيد ويزيد حتى اذا تذمر ذات مرة مللا صاح فيه محسن مغاضباً :

« لازم تحط فى اعتبارك إن ده كله لمصلحتك أنت أولاً ! ! »

كم كان يسعده ويضنيه فى نفس الوقت ذلك الشعور بأن هناك من يهتم به ويخاف عليه ، ودائما ما كان يتذكر اخوته فى مثل تلك اللحظات فيشعر فى حلقه بغصة ، ويتذكر شريفة فيذيبه الحنين إلى شقيقته . . .

قبل أن يصعد إلى الأتوبيس من نابولى الى سفح جبل البركان الشاهق ، لف ودار واختبر وتأكد حتى اطمأن ، صعد الى الاتوبيس وسط السائحين والسائحات ، كان قد ابتاع تذكرة وانضم إلى أحد الأفواج . . . وهاهو ينظر الى الوادى السحيق سابحا مع ذكرياته رغم صيحات الفتاة التى كان صداها يتردد فى جنبات الوادى . . . الشمس ساطعة والجبال شديدة الخضرة والصمت له طعم السعادة والمقعد يتأرجح صاعداً به الى قمة البركان . . . وصل المقعد الى محطته النهائية فغادره ووقف يشمل المكان بنظره ، لم ينتبه الى وصول المقعد التالى الذى يحمل الفتاة الأمريكية التى غادرته مندفعة كى تصطدم به ربما عن عمد وربما عن شقاوة ، أمسكت بذراعه ورفعت إليه وجهاً صافى اللون قائلة بصوت خافت :

« آسفة ! »

اجتذب وجهها المليح انتباهه .

« لا داعى للاعتذار ، كان هذا من دواعى سرورى ! »

حتى وهو يقترب من الموت لا يستطيع أن يكف عن الغزل . . . ابتسمت له الفتاة متسائلة :

« يونانى ؟ ! »

كالعادة ، وبفخر شديد . اندفعت كلمة « مصرى » إلى لسانه فلهث قلبه رعباً مانعاً الكلمة ـ بالكاد ـ عند طرف اللسان . . . قال وقد تمالك نفسه وصحا عقله :

« اسرائيلى ! »

أحرقت الغصة حلقه ، فهل يتخلى عن مصريته حتى من أجل مصر ؟ ! . . . واجهت الفتاه نظراته الفاحصة وهى تقول :

« كاتى نلسون »

مال عليها هامساً :

« وأنا ديڤيد سمحون ! »

أكثر ما كان يضايقه أن يأتى الصيد فى غير موعده ، سار مع السائرين إلى فوهة البركان الخامد . . . خيل إليه فى لحظة انه يقف عند قمة الدنيا ، كان صوت الدليل يتردد فى فضاء الكون شارحاً بانجليزية ذات لكنة ايطالية تاريخ البركان وثوراته وحممه . . . وكانت عينا الفتى تجوسان فى المكان بحثاً عن ذلك الوجه الأسمر ذى الشعر الأسود الناعم . . . حذره محسن ممتاز من الحديث مع مصطفى عبد العظيم عند قمة البركان عندما يراه هناك ، كان عليه اذا مارآه أن يتبعه فقط . . . اقتربت الساعة من الثانية عشرة والنصف وأفواج السياح تترى من ناحية محطة الوصول ، فجأة رآه فانتفض قلبه بالفرح ، كان

مصطفى عبد العظيم يغادر المحطة تتأبط ذراعه فتاة ايطالية صارخة الجمال . . . وكانت كاتى نلسون تطارده وهو يتهرب منها على مضض فلقد كان عليه الآن أن يتبع مصطفى وألا ينصرف إلا معه . . . عندما توجه مصطفى بفتاته إلى طريق العودة كان من حظة ان امتطى المقعد التالى لهما . . . زغردت عيناه وهما تشملان ايطالية مصطفى الفاخرة فى حسرة . . . عند سفح الجبل تبع مصطفى والفتاة الى السيارات الأجرة التى تنقل السياح من بركان « ڤيزوف » الى مدينة « بومبى » الفاجرة . . تلك التى أحرقتها حمم البركان ذات يوم فأحالتها ، بمن فيها وما فيها ، الى جثة مكسوة بمعدن مصهور ، وتحولت هذه الجثة فى العصر الحديث الى أثر سياحى يؤمه الناس ليتفرجوا على الاجساد المتفحمة فى سعادة ودهشة . . . وصلوا الى « بومبى » فتفرق السياح داخل المدينة على موعد مع سائق السيارة بعد ساعتين . . فى السيارة كان يجلس الى جوار مصطفى كتفا فى كتف لكنهما بدوا كغريبين التقيا وسط غرباء فى أرض غريبة ، لم يتبادل معه كلمة ، ولا حتى تحية ولانظرة ! !

كان عليه فى بومبى أن يضرب فى شوارع المدينة على غير هدى وفى أى اتجاه يروق له . . . فقط ، لابد من تجنب الصحبة أو الاقتراب من الآخرين . . . ثم ، سوف يلتقى به مصطفى عبد العظيم فلا داعى للقلق لو أن الأمر طال لدقائق . . . كان يتوق إلى لقاء مصطفى ليتزود منه بنظرة أخيرة إلى وطنه ، وبالتأكيد . . . فلسوف يسعده الاقتراب من ايطاليته الفاخرة الحسن . . . كان مستغرقاً فى التفكير عندما وجد مصطفى أمامه ، تهلل للقائه لكنه أصيب بخيبة أمل حقيقية ، فلقد كان مصطفى وحده ، وكانت فتاته قد اختفت !

قال مصطفى عبد العظيم وهما يجوسان بين أطلال مدينة « بومبى » المحترقة وكأنهما سائحان استغرقتهما المناقشة حول مايشاهدان من آثار ، ان كل هواجسه بلا معنى ، وان تلك الهواجس من الممكن ان تكون سببا فى تعطيله وربما كشف أمره اذا لم يردعها وتركها تستفحل فى نفسه ، أبدى إعجابه بالطريقة التى عامل بها رجلى الوكالة اليهودية : « كويس كدة » ، ثم قال وكأنه يشكو للفتى أمراً خاصاً : ان العرب منذ عام ١٩٤٨ اخترعوا أساطير عن ذكاء اليهود وقسوتهم وامكانات افرادهم ، وكلها أساطير ليست حقيقية بكل أسف ، والمؤلم فى الأمر أن اليهود استغلوا هذا الابتكار العربى لصالحهم ولتحقيق مآربهم . . . ثم سأل الفتى مستشهداً به :

« أنت مثلاً . . . اتعاملت مع اليهود فى مصر ، وعرفت ناس منهم فى نيويورك ، وقابلت ناس منهم هنا . . . فيهم حاجة أكثر مننا ؟ ! ! »

« طبعا لأ ! »

« طب ماتقول لنفسك ! »

أخذ يراجع معه صيغة البرقيات الكودية التى سيتبادلانها ، ثم راجعا اسلوب الخطابات التى سترسل منه أو اليه بدون حبر سرى ، والتى ستبدو وكأنها خطابات عادية تماماً ، لكن ثمة كلمات معينة ستوضع فى سياق الحديث حسب ترتيب خاص عليه أن يحفظه عن ظهر قلب . . . هذه هى وسائل الاتصال الوحيدة ، والمتاحة ، الآن . . . لكن المستقبل قد يحمل وسائل أكثر أمناً فمن يدرى ؟ !

قدم له ورقة طلب إليه أن ينقل مافيها من أرقام . . . هذه هى أرقام

صناديق البريد التى سيرسل الفتى خطاباته عليها فى عدد من عواصم أوربا وحسب جدول خاص ، وهناك ـ وسط هذه الأرقام ـ أرقام أخرى وهمية . . . اكتشف مصطفى أن للفتى ذاكرة حديدية ، فلقد حفظ الأرقام الحقيقية والوهمية وفرق بينها فى سرعة مذهلة ، وفى إصرار رفض رأفت أن يكتب الأرقام !

« أوعى تفتكر يارأفت اننا سايبينك هناك لوحدك ! »

هذا الثعلب الانيق والحنون كام رءوم يخشى عليه من خوفه ، وكلما ابتعد بهما الحديث عن هذا الخوف عاد مصطفى اليه كى يبثه الطمأنينة اذا ما افتقدت . . . هم الفتى بالحديث فاذا مصطفى ـ مرة أخرى ـ يبتعد عن الموضوع :

« بس المهم إنك تلتزم بالتعليمات التزام كامل . . . وفى الوقت الحاضر ، ومهما كانت المعلومات قدامك وبين ايديك وسهلة ومُتاحة ، أوعى تبعت حاجة لحد مانتقابل مرة ثانية ، وأكيد حاتكون فاكر كل اللى شفته !! »

تحول الفتى إلى أذان تصغى إلى دبيب النملة فى حديث الرجل الذى استطرد :

« أهم شىء دلوقت يا رأفت انك تثبت أقدامك ومكانتك فى تل أبيب ، وتعيش فى المجتمع الاسرائيلى بشكل طبيعى جداً ، زيك زى غيرك ، ومن غير أى مبالغة فى أى تصرف ! »

. . . .

. . . .

قبل أن يفترق عنه مصطفى عبد العظيم سأله فى ود :

« خايف يا رأفت »
« قوى ! ! »
هتف الفتى بالكلمة وكأنه يصرخ ، فقال مصطفى فى هدوء :
« أمر طبيعى ! »
وكان الوداع قاتلا ! !

وقف الشابان كل منهما تجاه الآخر . . . هذا هو لقاؤهما الثالث وقد يكون الأخير فمن يدرى مايخبئه القدر ؟ ! . . . كان كل منهما يشعر فى أعماقه بأنه عاش عمره كله مع الآخر ، وأن مصير كل منهما مرتبط بالآخر . . . فى العيون نظرات تغنى عن أى كلام . . . كانا يقفان فى حديقة نبتت وسط الدمار والأطلال المحترقة ، شد كل منهما على يد الآخر فى قوة ، انفعل الفتى فجذب يده من يد مصطفى يريد الهرب من الموقف وقد جاش صدره بأحاسيس لاقبل له بها، لكن يد مصطفى أطبقت على يده فى ود حميم . . . ومالبث كل منهما أن ضم الآخر الى صدره فى قوة ! !

●●●

ومثلما حدث فى الأسكندرية ، وقف الفتى على سطح السفينة التى أقلعت به الى اسرائيل وعيناه متشبثتان بالرصيف ، كان موقناً أن وجه مصطفى سيظهر فجأة بين وجوه المودعين كما ظهر وجه محسن على رصيف ميناء الاسكندرية . . . ولكن هيهات !

أبحرت به السفينة من فراغ . . . إلى فراغ ! !

●●●

تعالت الصيحات من حول الفتى عندما ظهرت شواطىء فلسطين وهى تزين الأفق وتحدده ، تجمع المهاجرون على السطح وراحوا يشيرون ويتصايحون ويثرثرون ويحلمون . . . شعر الفتى بأنه يهرب داخل نفسه ، أحس بمن يقف إلى جواره يكاد يلتصق به ، التفت فوجد « سوسو ليڤى » تاجر الساعات وعلى شفتيه ابتسامة بدت له غريبة !

« الحمد لله على السلامة ! »
« الله يسلمك ! »

صمت اليهودى الذى امتص جزءاً من عرقه لشهور لكن ابتسامته الخبيثة لم تغادر شفتيه ، تحفزت مخالب الفتى فاستدار اليه بكليته :

« فيه حاجة ياسوسو ؟ ! »
« أبداً . . . بس أنا كنت بافكر من شوية فى اليوم اللى شفتك فيه أول مرة مع أخويا افرايم ! ! »

سخر منه الفتى متحدياً :

« اشمعنى ؟ ! »
« كنت بأقول إن محدش قدر يكشفك ولايعرف انت مين ؟ ! »

هم الفتى بالنطق فعاد اليهودى مؤكداً :

« لا المصريين ، ولا حتى احنا ! ! »

داهم الفتى خوف عربيد وهو يواجه نظرات تاجر الساعات الباردة ، بدا على وجه رأفت الامتعاض وهو يسأل تاجر الساعات :

« قصدك ايه يا سوسو ؟ ! »

ربت سوسو ليڤى على ذراعه قائلا :

«قصدى انك تبقى تفتكرنا بالخير لما توصل والأمور تستقر ! »

قال اليهودى هذا ثم تركه ومضى !

تركه نهباً لخوف مروع راح ينهش صدره ، كانت السفينة تقترب من الشاطىء وحديث تاجر الساعات ليس فى حاجة الى تفسير أو تأويل ، وإلا . . . فما معنى قول هذا الرجل بأن أحداً لم يستطع كشف أمره من المصريين أو اليهود . . . . هاهو المحظور يقع ولابد من الاعتراف بأنهم أحكموا اللعبة وكانوا اكثر ذكاء منه ومن محسن ومصطفى جميعا . . . ولو أنه أراد التراجع الآن ، فهل يستطيع ؟ !

اقترب الشاطىء وبدت مبانى يافا واشتدت الحركة فوق سطح السفينة مع اقتراب زورق الارشاد الذى كان يشق المياه متقدماً من السفينة بسرعة . . . فى مؤخرة الزورق بدا له العلم الاسرائيلى غريبا بلونه الأبيض ونجمته الزرقاء . . . التفت بحثا عن سوسو ليفى لكن هذا كان قد عاد إلى الجموع التى تزاحمت فوق سطح السفينة وراحوا يتماوجون مع حركة السفينة فوق المياه وهى تدخل الى الميناء عابرة بوغازها الصغير . . . كان يقف فى السطح العلوى وحيدا ، تحرك إلى لا هدف وكان كل شىء من حوله يضج بالحركة وقد اقتربت زوارق أخرى وراحت تطلق صفاراتها مرحبة بالقادمين الجدد . . . رست السفينة الى جوار أحد الأرصفة وكان مزدحماً بالمستقبلين الذين راحو يتبادلون الصيحات مع القادمين ، أحس فى لحظة أنه عبر الزمن الى برج بابل ، وها هو يسمع صيحات بالانجليزية والفرنسية والألمانية والايطالية والعربية والعبرية ولغات لايعرفها .

« السيد سمحون ؟ ! »

انتفض ملتفتا وقد سقط قلبه بين ضلوعه ، كان ثمة ضابط من ضباط السفينة موفدا من قبل القبطان مودعاً . . . استمع الى كلمات

الضابط وقلبه يخفق فى عنف . . . حقيبته الوحيدة الى جواره والضابط يسأله إن كانت هناك حقائب أخرى فيرد عليه بأنه لم يمتلك فى حياته أكثرمن حقيبة واحدة . . . نظرة إعجاب تلك التى أطلت من عينى البحار الشاب أم ترى هى نظرة سخرية . . . انصرف الضابط وكان سلم السفينة الآن قد استقر فيما بينها وبين الرصيف . . . سرعان ما تعالت أصوات أقدام رجال الجمارك وشرطة الميناء وهى تدب فوق السلم فتتحول دباتها الى مطارق فى رأسه فهل أصيب بالجنون ؟ ! . . . وها هو الضابط الشاب يقف عند قمة السلم مستقبلاً رجال الشرطة الذين توقفوا متحدثين إليه متسائلين فاذا الضابط يرفع عينيه الى حيث السطح الذى يقف عليه واذا عيناه تلتقيان بعينيه واذا هو يشير اليه واذا رجال الشرطة يهرولون نحوه واذا هم يتقدمون منه فى خطى تعرف طريقها جيدا .

تسمر فى مكانه !

حاول الحركة فلم يستطع .

جف حلقه وزاغت عيناه فتذكر قول محسن ذات مساء : « عمرك شفت واحد خايف عينيه مابتقولش إنه خايف ؟ ! » . . . وهو خائف فكيف يخفى الخوف من عينيه . . . كانوا ثلاثة وقفوا قبالته ، ضابطين ورجلا بملابس مدنية ومن خلفهم رابع يرتدى ملابس الجنود ، شد قامته ووقف فى انتظار قدره ، تقدم منه الرجل ذو الملابس المدنية وعلى شفتيه ابتسامة بلا معنى .

« السيد سمحون ؟ ! »

« أنا هو ! »

صمت الرجل طويلا وهو يتأمله من قمة رأسه الى أخمص قدميه ، ركض قلبه بين ضلوعه فى عنف أوجعه ، ولدت على ملامح الرجل ابتسامة راحت تتسع وتتسع فكأنها تفسح الطريق لأنياب الرجل الذى مد له يده مصافحاً وهو يقول :

« أخيرا ! »

أخيرا وقع فى أيديهم فلا يحتاج الأمر الآن إلى تأويل ، مد للرجل يده فشد هذا عليها مستطرداً :

« أنا مكلف باستقبالك ! »

حاول أن يرد ، أن ينطق ، فخانه صوته ، قال أحد الضابطين :

« تفضل معنا ! »

لم يكن أمامه سوى الاستسلام فاستسلم لقدره ، هم نحو حقيبته لكن الجندى كان أسرع اليها منه ، سأله الضابط إن كانت هناك أمتعة أخرى فأجاب بالنفى . . . راح يخطو مغادراً السفينة وسط حراسه الذين أحاطوا به . . . وكان ـ وهو يخطو نحو السلم المؤدى الى الرصيف ـ يسير وسط جموع المهاجرين الذين أخذوا يفسحون الطريق للركب الغريب !

الفصل الثانى

أستير بلينسكى

ضحك عزيز الجبالى وهو يقول لهيلين سحون التى كانت مستغرقة فى الانصات إليه . . . إن الفتى قال فيما قال : إنه لم يعرف معنى الخوف كما عرفه فى ذلك اليوم ، لا لأن ثقته بنفسه أو بمحسن ممتاز الذى دفعه الى هذه الحياة قد اهتزت ، ولكن لأنه لم يكن هناك مابشعر به سوى الخوف . . .

كان المشهد غريبا كل الغرابة ، فكل المهاجرين الذين جاءوا حالمين بأرض « المعاد » كانوا قد صنعوا كتلة بشرية راحت تحدق فيه بعيون حاسدة وهم يفسحون له الطريق ـ مع حراسه ـ إلى سلم السفينة . . . وحتى ، عندما هبط السلم مع وفد استقباله ، فلقد كان المشهد على الرصيف وفى مكاتب الميناء وأروقتها يدعو إلى الشك العظيم لدرجة أنه فكر فى الفرار فعلا . . . كان الفرار بالقطع مستحيلا ، وكان هو يعلم ذلك تمام العلم ، غير أن كل ماكان يتمناه هو أن يطلق لساقيه العنان ، ولحنجرته أيضا كى تصرخ كما تشاء ! !

كان هناك مهاجرون أخرون فى الميناء ، بعضهم قضى ليلته هناك ، والبعض الأخر وصلت سفنهم قبل وصول سفينته ، وكان الزحام أمام

النوافـذ طوابـير تطول لأمتـار ، وقـد ملأت الأمتعة فضاء الأرصفة والممرات بينما اكتشف الفتى ان ضابطى الشرطة ، انما جاءا مع هذا الـذى يرتـدى ملابس مدنية ، كى يسهـلا له إجراءات خروجه من المينـاء ، تلك الاجـراءات التى لم تستغـرق سوى دقـائق لم تزد على الساعة . . . ولقد حاول مرافقه أن يشرح له تكدس المهاجرين أمام النوافذ قائلا :

« أن من يريدون الـذهـاب الى الكيوبتزيم ـ جمع كيوبتز ـ يقفون هنا ، ومن يفضلون مستعمرات الموشاف التعاونية ، يقفون هناك ! »

كانت إجراءات الخروج تتم بسرعة عندما سأله الرجل :

« هل تحب أن تنزل فى أحد بيوت الوكالة اليهودية ، أم تفضل فندقا ؟ ! »

قال الفتى فى تهكم محاولا السيطرة على خوفه :

« أعتقد أنى جئت الى هنا بحثا عن بيت ! »

هتف الرجل موضحا :

« ولكن عليك ياسيدى أن تنتظر قليلا حتى نجد لك مسكنا مناسبا ! »

« اذن فلنذهب الى فندق ! »

قدم له أحد ضابطى الشرطة أوراقه وخرجت حقيبته دون أن تمسها يد . . . ودعـه رجلا الشرطة فى احترام وكانت هناك سيارة انجليزية الصنع من بقايا الاستعمار الانجليزى فى انتظاره .

أمام أحد فنادق الدرجه الأولى توقفت السيارة ، ترك الحقيبة للحمال الذى تقدم إليها وتبع الرجل الذى كان الآن يهرول إلى موظف الحجز

فى الفنـدق وقد بدت على وجهه علامات الجدية الشديدة . . . أبطأ خطاه وهو يتلفت حوله لكنه كان ـ فى الحقيقة ـ يرقب موظف الفندق وهو يستمع الى الرجل فى اهتمام وينظر نحوه فى احترام وهو يهز رأسه إيجابا . . . ما ان اقترب منه حتى سأله هذا فى أدب شديد :

« هل يحب السيد سمحون غرفة أم جناحا ؟ ! »

على الفور قال :

« ان غرفة تكفى فلن أبقى طويلا ! »

قال هذا ثم التفت نحو الرجل متسائلا :

« أليس كذلك ؟ ! »

هتف الرجل فى تأكيد :

« سندبر كل شىء ياسيدى ، سندبر كل شىء ! »

تم الحجز فغادره الرجل كى يستريح مؤكدا أن شخصا آخر سوف يتصـل به فى صباح اليوم التالى . . . صعد إلى غرفته وأغلقها عليه وارتمى فوق الفـراش محملقـا فى السقف غائبا فى دوامة من الشكوك راحت تمزقه تمزيقا . . . راح يتساءل إن كانوا قد ابتلعوا الطعم بهذه السهولة حقا أم أن وراء مايحدث اشياء وأشياء ؟ ! . . . هل هم أغبياء إلى هذا الحـد ؟ . . . هل مايراه ترحيب أم أن هذا كله ليس سوى وسيلة للايقاع به فى تلذذ ؟ !

عندما دق جرس التليفون فى الصباح التالى انتفض من غفوة كانت قد ألمت به ، فهو لم يعرف للنوم طعما طوال الليل ، داهمته الكوابيس فحرمته الراحة ، قضى ليلة فتكت به فيها هواجس بلا حصر ، لم يغادر غرفتـه طوال الأمس فى انتظار المجهول ، رفع سماعة التليفون وكان

المتحدث من الوكالة اليهودية وكان فى انتظاره فى بهو الفندق ، قال بصوت حاول أن يجعله متماسكا :

« قد أتأخر لبعض الوقت فأنا لم أحلق ذقنى بعد ! »

عندما هبط الى البهو كان نصف ساعة قد انقضى وتقدم الرجل منه فى ترحاب . . . وجد فى انتظاره سيارة فرنسية فاخرة ، طلب إليه الرجل أن يركب فركب دون أن يسأل الى اين ، كانت معركته مع الخوف طوال الليل قد هدت قواه ، قال والسيارة تزحف به فى شوارع تل أبيب محاولا إدارة دفة الحديث :

« لم أكن أعرف أن تل أبيب قريبة الى هذا الحد من يافا ! »

ابتسم الرجل فى أدب وهز رأسه دون كلمة . . . راح الفتى يتتبع معالم الطريق موقنا أنه الآن فى قبضتهم فلماذا يرد الرجل عليه أو يتبادل معه حديثا . . . أمام مبنى قديم فى شارع بدا له مزدحما توقفت السيارة ، صعدا الدرج الى الطابق الأول ودلفا إلى مكتب وضعت على بابه لافتة تقول إن اسم صاحبة هو « يوسف الأزرع » وأن مهنته هى المحاماة . . . كان يوسف الأزرع رجلا أصلع قصير القامة طويل السحنة مشدود الجلد معروق اليدين ، هب من خلف مكتبه كثعلب وهو يرحب به بالعبرية :

« مرحبا بك ياسيد حنانيا! »

قرر أن يدخل المباراة على الفور فرد بالفرنسية :

« اعتقد أن الاسم المدون فى جواز سفرى هو ديڤيد شارل سمحون »

انصرف مرافقه وخلت الغرفة إلا منه ومن المحامى الثعلبى الوجه ،

رد الرجل عليه وهو يميل الى الأمام وقد ارتسمت على شفتيه ابتسامة مطمئنة !

« إنك الآن فى اسرائيل أيها السيد ! »

« أعرف هذا ! »

« ونحن نعرف كل شىء عنك ! »

« وهذا أيضا أعرفه . . . ولكنى أعرف شيئا أخر ! »

« ماهو ؟ ! »

«أن المصريين ليسوا بالغباء الذى تظنونه ! »

نهض الثعلب من خلف مكتبه مستهينا كمن يستعد للدفاع عن قضية مضمونة ، قبل أن ينطق عاجله الفتى فى حدة :

« لقد تحدثت فى هذا الموضوع من قبل فى نابولى ، ولكن لابأس من وضع حد نهائى له هنا ! »

بجوار المكتب وقف الأزرع ناظرا الى الفتى فى دهشة . . . ولقد كان على حق فى دهشته ، ذلك أن الفتى اقسم ذات مساء ـ بعد سنوات ـ فى عاصمة أوربية وهو يشرح تلك اللحظات ، بأنه لم يكن يعى ماالذى يفعله ، كل ماكان يذكره أنه أحس فى لحظة أضناه فيها الخوف بأنه إن كان لابد من الموت فليمت مرفوع الرأس . وضع ساقا فوق ساق مستطردا :

« إن المسيو شارل سمحون عندما أعطانى اسم ولده فى الاسكندرية ، كان له رجاء حار . . . أتدرى ماهو؟ ! »

« ومن أين لى أن ادرى ؟ ! »

« لقد رجانى ان احتفظ بهذا الاسم وألا اتخلى عنه ! »

صمت الفتى لثوان كمن يقيس تأثير حديثه على الرجل ، لكنه مالبث أن غمغم :

« ولربما كان فى هذا عزاء لفقدان ولده الذى كان فى مثل عمرى ! »

سبحت فى ملامح يوسف الأزرع ابتسامة إعجاب فعاد الى مقعده قائلا :

« لك كل الحق . . . وعلى كل فهذا أمر يخصك وحدك ! »

مضت لحظات صمت كان الرجل يرتب فيها بعض الأوراق فوق مكتبه بحركة روتينية توحى بوضوح أنه كان فى الحقيقة يرتب أفكاره . . . رفع رأسه نحو الفتى هاتفا :

« والآن . . . ماذا تحب أن تفعل فى إسرائيل ؟ ! »

« أنوى أن أعيش فيها ! »

ككرة من مطاط نهض الأزرع ثم جلس بلا داع .

« هذا طبيعى ولكنى كنت أقصد العمل ! »

فى استقامة من يعرف طريقه جيدا قال رأفت :

« لقد ادخرت بعض المال ، وأعطانى السيد سمحون الكبير بعضا آخر يكفى لأن ابدأ مشروعا سياحيا صغيرا ! »

هم يوسف الأزرع بالحديث لكن الفتى استطرد :

« لكنه سيكبر مع الأيام بطبيعة الحال ! »

تهدلت ملامح المحامى وبدت عليه خيبة الأمل فقال الفتى :

«أرى أنك لست متحمسا لمشروعى ؟

غمغم المحامى من بين شفتيه وقد تجهمت نبراته :

« كنا نتمنى ان تفكر فى اتجاه آخر ! »

كاد الفتى يسأله عما يقصد لكنه تراجع ، قال فى ضيق :

« لقد تعبت ! »

« كلنا تعبنا ! »

لم يصدق الفتى أذنيه ، كانت جملة يوسف الأزرع المحامى هى أول بشير له بالسلامة منذ أن عرف حقيقة مهمته من محسن ممتاز . . . كان الرجل يتحدث إليه على مستوى القادة والفدائيين والذين بذلوا جهدا . . . مال نحو المكتب ودق عليه بأطراف أصابعه :

« يكفينى مافعلته وما عانيت منه حتى الآن ! »

«إنك لاتزال فى شرخ الشباب ! »

« لقد عشت حياتى كلها من أجل إقامة هذا الوطن ! »

« نحن نعلم هذا ! »

« ولقد آن لى أن أعيش حياة عادية و بسيطة ! »

هم الرجل بالحديث فعاجله الفتى :

« ثم . . . الا ترى أن الحديث فى مثل هذا الأمر سابق لأوانه ؟ ! »

أحس الرجل بتراجع الفتى فانتقل الى مقعد مجاور له ، أخذ الحوار مسارا دائريا حول حياة رأفت وخبرته فى مقاومة البوليس المصرى والسلطات الانجليزية والألمانية والايطالية فى المغرب العربى ، كانت حجة يوسف الأزرع أن الفتى يملك خبرة وأن اسرائيل فى حاجة الى هذه الخبرة . . . قال الفتى فى سخرية إنه حتى لايعرف باسم من يتحدث يوسف الأزرع ، فابتسم الثعلب العجوز ولم يرد راح يستفيض فى شرح طبيعة العمليات التى قام بها الفتى ، وأن « الوطن » لايزال فى طور التأسيس وهو فى حاجة الى جهود كل أبنائه ، اكتشف الفتى أن كل ما ادعاه عن نفسه فى مقهى استانبيلوس فى شارع سليمان

بالقاهرة قد وصل إلى تل ابيب كحقائق غير قابلة للمناقشة . . . أبناء الأفاعى يتجسسون على وطنه بمن يعيشون فيه ويتمرغون فى خيراته . . . راح يوسف الأزرع يشرح كيف أن الوطن قد أقيم فعلا لكنه فى حاجة إلى من يحميه من أعدائه العرب المتربصين به من كل جانب ، فوجىء المحامى الثعلب بالفتى يضع يده فوق يده كى يوقفه عن الحديث ، استجاب الأزرع فاذا الفتى يقول بالعامية المصرية :

« شوف ياخواجة يوسف ، ماتتعبش نفسك ! »

جمد العجوز لثوان فاعتدل الفتى قائلا :

« أنا عارف أنك بتتكلم عربى كويس ! »

« عرفت ازاى ؟! »

« أنت عشت فى مصر قد اية ؟ ! »

« كتير ! »

« وبرضه ماتعلمتش من المصريين حاجة ! »

« علشان كده احنا محتاجين أنك تعلمنا ! »

« طب مش ارتاح لى شوية وبعدين نفكر فى الموضوع ده ؟ ! »

« وهو كذلك ! »

« ازاى اقدر الاقى شقه على قدى ؟ ! »

« سيب الحكاية دى علينا ! »

« انتوا مين ؟ ! »

اقتنص الفتى الفرصة فبدا الأزرع وكأنه أخذ على غرة ، راوغ قائلا :

« أكيد حانلاقى لك شقة مناسبة ! »

داعب الفتى جشعه الغريزى عندما قال :

« بس بسرعة ، لانى عاوز اناقش معاك مشروع شركة السياحة ! »

« أنت مصمم ؟ ! »

« أنت متجوز ؟ ! »

«طبعا ! »

«أنا كمان نفسى اتجوز زيك ! »

كانت قفشة ضحكا لها معا ، كما كانت ردا أفحم المحامى الذى صافحه مودعا موصلا إياه حتى الباب ، وهناك طلب إليه الفتى أن يصرف السيارة والمرافق ، وأن يتركه للوطن الجديد كى يتعرف عليه على مهل . . . عندما هم بالانصراف هتف به الأزرع :

« على فكرة ، حساب اللوكاندة ، مهما كانت الأيام ، مدفوع ! »

•••

لم يكن صعبا على الفتى أن يجوس خلال المجتمع الاسرائيلى وأن يتسلل إليه فى رفق . . . كان قد تعود على اختراق المجتمعات الغربية منذ أيام تشرده فى أوربا وأمريكا . . . خفت حدة خوفه فى الأيام التالية فلقد اكتشف أنه غير متبوع ولامراقب ، راح يجوس فى شوارع تل أبيب ويرتاد محلاتها متعرفا على المدينة فى تذوق المحترف . . . لفت نظره أن أغلب شركات السياحة تقع فى شارع « بن يهودا » الذى يقطع تل أبيب من الشمال الى الجنوب حيث يصبح امتداده شارع «اللنبى » الشهير ، ذكره شارع « ديز نجوف » ـ الشارع الرئيسى فى تل أبيب ـ بشارع فؤاد بالقاهرة ، كما ذكره شارع « هايركون » بكورنيش الاسكندرية . . . كان أكثر ما اهتم به هو الـ « شاباط » ـ أى يوم السبت ـ فرغم أن المجتمع الاسرائيلى غير متجانس تحكمه خلافات وانقسامات اجتماعية

وعرقية حادة ، الا أنه وجدهم جميعا يقدسون عشاء الجمعة حيث يبدأ السبت مع الغروب ، تجتمع العائلة حول مائدة الطعام ، ويضيئون الشموع ، ثم يصلون قارئين جزءا من سفر «الخروج» بالتوراة ، خروج اليهود من مصر :

« . . . فحمل الشعب عجينهم قبل أن يختمر ومعاجنهم مصرورة فى ثيابهم على أكتافهم * وفعل بنو إسرائيل بحسب قول موسى . طلبوا من المصريين أمتعة فضة وأمتعة ذهب وثياباً * وأعطى الرب نعمة للشعب فى عيون المصريين حتى أعاروهم . فسلبوا المصريين »

عاود يوسف الأزرع الحديث فى موضوع العمل مرة أخرى فوجد من الفتى إصرارا على موقفه ، عثر رأفت على مسكن صغير فى أطراف المدينة يصلح لشاب اعزب متوسط الحال ، لم يكن العثور على المسكن صعبا فلم يمكث فى الفندق سوى أسبوع واحد . . . كان موقع السكن مثاليا رغم أن محسن لم يتحدث إليه فى هذا الموضوع بأكثر من أن يعيش كما يعيش الناس وفى وسطهم ، وألا يسرف فى الانفاق فالمفروض أنه محدود الموارد يبحث عن مصدر للرزق . . . واذا كانت المرأة تشكل نقطة ضعف أكيدة فى شخصيته ، فإن حب الفخفخة ـ لاحب المال لذاته ـ هو نقطة ضعف أخرى وعليه أن يتغلب عليهما مهما كان الثمن !



كان لرأفت الهجان حس مرهف بالأمن يدعو إلى الاعجاب حقا ، وقع اختياره على هذا المسكن لموقعه المثالى فى اطراف تل ابيب ، كانت « الشقة » فى عمارة سكنية ترتفع عدة طوابق ، أهم مافيها تلك الشرفة التى اذا مأأطل منها كشف القادم من مسافة تكفى لاخفاء مايريد إخفاءه !

ساعده يوسف الأزرع مساعدة قيمة فى استخراج تلك الأوراق التى تثبت شخصيته وتقننها وتدعم وجوده . . . ما إن انتقل الى مسكنه الجديد - هذا الذى ارتبط به لعدة سنوات تالية - حتى بدأ البحث فى قضية انشاء شركة السياحة المرتقبة . . . اكتشف ان الامر يستلزم العديد من الاجراءات المعقدة والمصاريف الباهظة . . . قال فيما بعد وهو يضحك : انه اكتشف أنه كى يستطيع ان يشق طريقه بسهولة وسط الاسرائيليين عليه ان يتصرف ويفكر كيهودى ، كان قد حول جزءا من ماله الى اسرائيل وترك فى الخارج جزءا يعينه وقت الحاجة إليه . . . اتخذ قراره بأن ينشىء المكتب أو الشركة مع شريك آخر . . . شريك يعرف المجتمع الاسرائيلى معرفة تعفيه من الخوض فى تعقيدات إدارية هو فى غنى عنها . . . ثم ان هذا الشريك - إن وجد - سوف يعلمه الكثير مما يجب عليه ان يتعلمه !

فى زيارة قام بها ذات يوم الى مكتب يوسف الأزرع المحامى ، تطرق الحديث الى مشروعه وما الذى تم فيه ، ابدى الفتى ضيقه البالغ من التعقيدات والروتين والمصاريف الباهظة وضرورة دفع رشوة هنا

وهناك . . . المح إلى انه الآن يبحث عن شريك يتولى عنه الأمور الادارية والمالية كى يتفرغ هو للأمور الفنية ، أبدى دهشته لأن حجم السياحة فى اسرائيل مازال صغيرا رغم أن هناك إمكانات تبشر بحركة نشطة . . . ابدى المحامى الثعلب تفهمه الكامل لوجهة نظر الفتى لكنه لم يعرض عليه شيئا . . . بعد بضعةُ أيام تلقى منه الفتى دعوة على العشاء عند عائلة محترمة يشرفها ان تتعرف عليه . . . رب العائلة استاذ جامعى وزوجته مهندسة كيميائية وابنتاه مجندتان فى جيش الدفاع الاسرائيلى ، رحب الفتى لكنه عندما ذهب مع الأزرع فى الموعد وجد عددا آخر من المدعوين على نفس العشاء . . . كولونيل فى الجيش الاسرائيلى وزوجته ، كان اسم الكولونيل « بيخور شطريت » وكان رجلا فى منتصف العمر مثله مثل زوجته التى كانت تكبره بعامين أو ثلاثة . . . ولسبب غامض ، أحس الفتى أن الكولونيل الكهل يتقرب إليه ، بل أحس وكأن الرجل قد ارتاح إليه . . . وأكثر من ذلك ، كان إحساسه صارخا بأنه سوف يرتبط به مع الأيام ارتباطا وثيقا . . . وتأكد إحساس الفتى بذلك عندما طلب إليه الكولونيل أن يتبادلا أرقام التليفونات ، ثم . . . وعندما تقدم الليل ، وشرب الكولونيل شطريت قدرا كافيا من الخمر ، اقترب منه مغمغما :

« ما الذى جاء بك إلى هذا الجحيم أيها السيد ! »

ولم يرد عليه الفتى ، بل لم يهتم بأن يبحث عن رد فلقد كان واضحا أن الكولونيل يقول مالايعى . . . اندمج رأفت فى الحديث مع بقية المدعوين ، كان أحدهم مدرسا شابا يمت بصلة القرابة الى اصحاب

البيت وبصحبته خطيبته الحسناء ، كما كان هناك مذيع جاء بصحبة أمه التى بدت طوال الليل وكأنها تجلس فوق مقعد مرتفع وتنظر الى الجميع من عل . . . ولكن الشخصية التى لفتت نظر الفتى كانت لرجل أعمال اسمه « جدعون شاباتاى » ، ولقد بدا هذا الرجل الذى قدموه له على أنه رجل أعمال ، وكأنه جاء إلى هذا العشاء فى مهمة خاصة ، فلم يكن يربطه بالآخرين أى نوع من أنواع العلاقات ، كان السيد شاباتاى طويل القامة ضخم الجثة محنى الظهر خفيف الشعر هائل التقاطيع مهدل الملابس ، وكان لابد أن يدور الحديث بعد العشاء الذى اقيم على شرف الفتى حول المستقبل ، ومـاينوى الفتى صنعه فى تل أبيب . . . ولقد تحدث الفتى عن مشروعه فى اقتضاب من يثق فى كل كلمة تصدر عنه ، ثم اختتم حديثه بأن قال إنه يبحث الآن عن شريك يتولى الأمور الادارية والمالية التى تصيبه عادة بالملل الشديد ، وهنا انبرى جدعون شاباتاى متسائلا :

« ماهى فكرتك عن المشروع ؟ ! »
« الأمر يتوقف على قدرات هذا الشريك ! »
قال الرجل وهو يحك جلد يده فى عنف :

« ربما وجدت لك هذا الشريك لو تحدثنا أكثر فى التفاصيل ! »

وادرك الفتى على الفور أنه كان محقا فى إحساسه ، فسرعان ماتحدد موعد بعد يومين فى مكتب يوسف الأزرع . . . وعندما ذهب الفتى فى الموعد كان موقنا بأن لجدعون شاباتاى هذا علاقة بيوسف الأزرع ، وكان اول ماالكتشفه الفتى ان للسيد شاباتاى شقيقا يشغل وظيفة هامة

فى شركة الطيران الاسرائيلية « العال » ، وأن الأزرع هو الذى يتولى أعمال جدعون الأخرى . . . تدفق الفتى فى حديثه حول المشروع واحتمالات نجاحه خاصة أن يهود العالم ، إن لم يرغب بعضهم فى الهجرة إلى إسرائيل والعودة الى أرض « المعاد » ، فإنهم بالقطع يتوقون لرؤيتها ورؤية المجتمع الجديد الذى ظلوا يخططون له قرابة نصف قرن من الزمان ويحلم به الأجداد من ألوف السنين . . . وهذا هو الوتر الذى يجب أن تلعب عليه الشركة لاستجلاب السائحين من مختلف انحاء العالم . . .

كانت فكرة الفتى براقة ، كانت منطقية وكانت أيضا قومية !
« كم يلزمك من المال ؟ ! »

هكذا سأله جدعون فرد الفتى فى وضوح حسم الأمر :
« ليست هذه وظيفتى ، فلست أعرف المجتمع هنا ولا الأسعار ولا التكاليف كما تعرفها أنت ، وعليك أن تخبرنى كم يلزمنا من المال ! »
ابتسم السيد شاباتاى وقد ادرك أن الفتى كشف أوراقه فغمغم :
« وهذا يتوقف على حجم المشروع ! »
« لست من هواة القفز إلى القمة ! »
« اذن فلنبدأ بمكتب صغير ! »
« على ألا يزيد عدد موظفيه على اثنين أو ثلاثة ! »

بعد سبعة ايام كانا ـ رأفت الهجان وجدعون شاباتاى ـ قد استأجرا مكتبـا فى شارع من أهم شوارع تل ابيب ، هو شارع « يوشع بن نون » ، رفض فكرة استئجار مكتب فى شارع ديزنجوف أو شارع بن يهودا حيث تتكدس شركات السياحة مفضلا الابتعاد عن مواطن

المنافسة ، انتهت الاجراءات المبدئية للتعاقد بينهما كشريكين وتركا الأمر ليوسف الأزرع كى يضع كل شىء فى صيغته القانونية . . . كان أول المهام بعد تأثيث المكتب هو البحث عن سكرتيرة . . . حرص الفتى أشد مايكون الحرص ـ طوال الأيام التى انصرمت ـ على البعد عن النساء .

« هم دول نقطة ضعفك الوحيدة يارأفت . . . لازم تأخد بالك من نفسك فى النقطة دى بالذات ! »

هكذا قال له محسن ذات ليلة بعد حوار صريح بين صديقين عن حياة الفتى وتجاربه وما مُر به فى مصر والخارج .

« خلى الكلام ده حلق فى ودانك علشان ماتنساهوش ابدا ! »

لم يكن قد صارح محسن بكل شىء بطبيعة الحال ، كان ماقصه عليه « قشورا » من بحر زاخر بالوجوه والجمال والسعادة ومايفوقها مما يعرفه هو ويدريه عن نفسه . . . كان قراره النهائى الا يقع فى الحب مهما كانت المغريات . . . عندما بدأ البحث عن سكرتيرة تقدمت خمس عشرة فتاة لنيل الوظيفة . . . اكتشف رأفت منذ الوهلة الأولى ان « جدعون » قد رتب الأمر واعطى وعدا لآنسة فى الخامسة والاربعين من عمرها أسمها « سيبيل يوسف » بأن تشغل الوظيفة . . . ترك جدعون يجرى الاختبار مع الفتيات وحده وجلس هو الى جواره مستمعا ، فى البداية كان ظنه

أن المجتمع الاسرائيلى قد لايتشابه مع المجتمع الأوربى أو الامريكى لكنه لم يجد فارقا يذكر . . . تراوح مستوى الجمال بين الفتيات فيما بين قمة أثارت إعجابه ، وجمال متواضع تمثله صديقة جدعون المتلهفة على شغل الوظيفة . . . غير أن فتاه بعينها ، جاءت وجلست وسئلت

واجابت ثم مضت بوعد بالاتصال بها مثلها مثل الأخريات ، لم تفارق صورتها خيال الفتى أبدا . . . لم يكن فيها مايلفت النظر سوى عينين تبدوان وكأنهما تبحثان عن مأوى ، ترددت عيناها فيما بين السيد شاباتاى والفتى ثم تشبثتا بوجه الفتى فى استغاثة صامتة ، عندماجلست قبالتهما سألها جدعون :

«ماسمك يافتاتى ؟ ! »

« استير بلينسكى ! »

« بولندية ؟ ! »

«المفروض انى اسرائيلية !! »

تبادل جدعون النظرات مع الفتى ثم عاد يسألها وقد ابتلع الرد الغاضب :

« كم لغة تتقنين ؟ ! »

« ثلاث لغات عدا البولندية والعبرية هى الانجليزية والفرنسية والألمانية ! »

« متزوجة ؟ ! »

عادت عينا الفتاة تتشبثان بوجه الفتى وهى تقول :

« مخطوبة »

« ماذا يعمل خطيبك ؟ ! »

« المفروض أنه مهندس طائرات ! »

« وماذا يعمل غير ذلك ؟ ! »

« انه يقضى أغلب أيامه فى رئاسة الأركان . . فهو ضابط احتياطى »

ولم يسمع الفتى شيئا بعد ذلك ، راح يرقب الفتاة التى كانت تجيب على الأسئلة بنبرة رافضة متوسلة فى نفس الوقت . شىء غريب فى « استير بلينسكى » كان يجذبه اليها ، انتهت مقابلات الفتيات فى يومين وكان اختيار جدعون لصديقته « سيبيل يوسف » واضحا ، عندما سأله عن رأيه قال الفتى إنه اكثر درايه منه بالاسرائيليات وانه يترك له حرية الاختيار ، تظاهر جدعون بأنه يقلب فى الأوراق التى أمامه ثم قال زافرا :

« لست أرى من تفوق سيبيل يوسف خبرة ومقدرة ! »

« كنت أعلم هذا منذ البداية ! »

جاءت كلمات الفتى مثل لطمة مفاجئة فالتفت إليه جدعون مستفسرا ، فإذا الفتى يقول فى وضوح :

« كنت اعلم منذ البداية ان اختيارك سيقع عليها ! »

« ولكنها أكثرهن خبرة وتدريبا ! »

« هذا صحيح . . . ولكنى افضل أن نفصل بين حياتنا الخاصة وبين العمل ! »

هم جدعون بالرد وكان يحك ظهر يده فى عنف :

« أرجو الا تنكر فلقد كان الأمر واضحا أشد مايكون الوضوح ! »

نهض جدعون مدافعا وإن كان الحرج يكبل كلماته :

« حتى ولو كان الأمر كما تدعى ، فإننا فى حاجة الى سكرتيرة مدربة تستطيع أن تفهمنا معا حتى لاتوقعنا فى مآزق نحن فى غنى عنها ! ! »

« ولكن الآنسة سيبيل ستفهمك وحدك ياعزيزى جدعون ! »

بقدر ماكان فى لهجة الفتى من صرامة تحدد ملامح العلاقة ، كان هناك اتهام معلق فوق رأس شريكه الذى اخذ يتراجع مغمغما :

«يبدو انك عنيد بقدر كاف ياديفيد ! »

مال الفتى نحوه قائلا وهو يضغط على كلماته حتى تصل إلى الرجل واضحة :

« لقد عشت عمرى كله ياسيد شاباتاى أعمل من أجل إقامة هذا الوطن ، والآن وقد تحقق الحلم ، فلابد لى من أن أعيش فيه كما ينبغى . . . والحقيقة التى لابد أن تعرفها بوضوح . انى لا أملك من المال سوى هذا الذى قدمه لى السيد شارل سمحون ، وعلى ذلك فانا لست على استعداد لتبديده لسبب أو لآخر ، ولابد أن ينجح هذا المشروع مهما كان الثمن وأى تهاون فى اى أمر من أمور الشركة لن أقبله ! »

كانت دهشة الفتى شديدة ، وكانت سعادته أشد وهو يرى جدعون يعود إلى مقعده وقد استسلم تماما :

« حسن . . . حسن . . . افعل ماشئت ، واختر من الفتيات من تروق لك ! »

« ولا هذا أيضا اقبله ! »

فى حيرة رفع الرجل اليه عينيه فاستطرد الفتى :

« فى مصر مثل شعبى يقول : اللى أوله شرط آخره نور . . . هل أدركت معناه ؟ ! »

« يقينا ! »

« أذن فعلينا أن نفعل كل شيء معا ، وان يكون كل منا ـ فيما يختص بالعمل ـ على علم كامل بخطوات الآخر ! »

« ماالذى تريده بالضبط ؟ ! »

« أن نختار السكرتيرة معا ! »

وهكذا راحا يراجعان اسماء الفتيات وصورهن ومؤهلاتهن وسنوات خبرتهن وقدراتهن . . . ولم يكن صعبا على الفتى الآن أن يدفع جدعون شاباتاى إلى اختيار « استير بلينسكى » ثم يتظاهر هو بالتردد ، ثم يدفعه فى لحظة عناد الى التشبث بهذا الاختيار متحررا من تهمة التحيز فهو لايعرف الفتاة ولم يلتق بها من قبل وليست بينه وبينها علاقة ، حتى اذا ما أبدى الفتى موافقته ، ابداها وكأنه يتنازل لشريكه ويخضع لرأية ! !

●●●

ضحكت هيلين سمحون وهى تقول لعزيز الجبالى :

« يبدو أنى تزوجت ثعلبا ! »

« هذا صحيح . . . ولكنه كان يحمل قلب طفل ! »

أطلقت عينا هيلين نظرة مشتعلة فابتسم عزيز فى خبث مداعبا إياها :

« كان هذا قبل أن يلتقى بك يا سيدتى ! ! »

وضحكا معا !

●●●

بعد ثلاثة أشهر كانت استير فى وداع الفتى فى المطار ، قبل أن يغادرها قدمت له تذكرة الطائرة وجواز السفر وأكدت على وجود بعض

الأوراق والملفات فى حقيبته ثم نبهته إلى مواعيد الدواء الذى وصفه له الطبيب وأوصته بألا يعرض نفسه لبرد أوربا فهى تريده أن يعود إليها فى كامل صحته . . . كان الصيف قد انقضى وجاء الخريف بأوراق اشجاره المتطايرة ورياحه الباردة . . . حقق المكتب عددا لا بأس به من الرحلات لكن مجال السياحة فى تلك الأيام كان مجدبا ، فراح الفتى يراسل بعض مكاتب السياحة فى روما وباريس ولندن ونيويورك . . . ذات يوم جاءه خطاب من صديقة قديمة تعيش فى باريس تعلن فيه سرورها البالغ لاستقراره أخيرا وافتتاحه هذا المكتب ولو أنها : « أفتقدك وأفتقد ليالى باريس معك ! » وكان معنى هذه الجملة أن مصطفى يريد أن يراه فى روما ، وقالت مدموازيل مارسيل ـ هذا اسم الصديقة ـ إن هناك ثمانية افلام جديدة تعرض الآن فى العاصمة الفرنسية ، وكان معنى هذا أنه يريد أن يراه فى اليوم الثامن من الشهر القادم ، ثم ختمت مارسيل خطابها بقولها : « لو فكرت فى الحضور فلابد أن تبرق لى بموعد وصولك حتى أكون فى انتظارك ! » . . . وأدرك الفتى أن مصطفى عبد العظيم يريد أن يراه بأى شكل !

عندما انتهى من الخطاب رفع رأسه فاذا استير بلينسكى تنظر إليه فى عتاب صارخ ، ليس هذا جديدا عليه وان كان الأمر أصبح يحيره كثيرا . . . كان موقنا أن الفتاة قد وقعت فى حبه وأن الغيرة أصبحت تأكلها أكلا ، لم يكن هذا مايعنيه بقدر ما كان يعنيه أن قلبه كان يخفق إشفاقا على نفسه أولا . . . فهل قدر له أن يعيش بقية عمره راهبا مطيعا لتوصيات محسن ممتاز ؟ ! . . . أمسك بالقلم وكتب برقية إلى الآنسة

« مارسيل مورياك » فى باريس ، طلب إلى استير أن تجهز له كل الأوراق الخاصة بمراسلاته مع شركات السياحة فى روما وباريس ، وأن تحجز له مقعدا على الطائرة المقلعة إلى باريس مرورا بالعاصمة الايطالية . . . ولقد قال الفتى فيما بعد : إنه كان يشعر بفرحة طاغية وهو فى طريقه الى لقاء مصطفى ، كانت شهور ثلاثة قد انقضت لم ينطق فيها لسانه بحرف عربى واحد ، قرر أن يلزم نفسه بالحديث بالعبرية حتى يتقنها تماما . . . وصل الى روما فى اليوم السادس من أكتوبر عام ١٩٥٥ وكان أمامه يومان حتى يلتقى بمصطفى ، طوال هذين اليومين راح يعمل ويتصل بمكاتب السياحة وشركاتها ويتفاوض ويناقش ويجادل ولقد حقق إنجازا لا بأس به . . . كان أسلوب لقائه مع مصطفى مركبا ومعقدا فازداد الشوق فى صدره للقاء وطنه . . . راح يتساءل إن كان مصطفى قد سافر إلى القاهرة منذ غادره هو فى « بومبى » أم أنه ظل فى أوربا طوال تلك المدة . . . كان الشوق الى مصر كشوق العطشان إلى شربة ماء . . . داعبت خواطره شريفة أخته وطارق ابنها بل داعبت خياله صور إخوته وطارديه من جنة العائلة الى حيث أوصله القدر الى مالم يخطر بباله قط ، توقفت الخواطر عند محسن ممتاز ، كم اشتاق إليه وكم سينتظر من شهور وربما أعوام حتى يراه مرة أخرى . . . كيف ارتبط بهذا الضابط المتجهم وكيف أحبه وكيف صنعا معا ما صنعا ؟ ! . . . فى السابعة من مساء اليوم الثالث لوصوله الى روما كان يدلف إلى إحدى العمارات المكتظة بالسكان فى قلب المدينة . . . دلف إلى المصعد وترك للآخرين تحديد أرقام الطوابق ، عندما وصل المصعد الى الطابق الثامن غادره رجل بدا فى عجلة من أمره ، خطا الفتى خارج المصعد متمهلا حتى اختفى الرجل وساد

السكون من حوله ، انتظر لثوان ثم هبط الدرج الى الطابق السادس ، انتظر قليلا حتى اطمأن تماما ثم تقدم إلى أحد الأبواب ودق الجرس دقة واحدة ، فتح الباب فاذا الذى امامه هو محسن ممتاز بلحمه وشحمه ، هم بالصياح وقد انتفض بفرحة طاغية لكن هذا جذبه الى الداخل بعنف وأغلق الباب ، عندما التفت محسن إلى الفتى وكانت الابتسامة تملأ وجهه ، وجد عينى الفتى مغرورقتين بالدمع .

« ايه المفاجأة الحلوة دى يا محسن بيه ؟ ! »

« أصلك وحشتنى قوى يارأفت ! »

حال سماع الفتى لاسمه الحقيقى ، لم يستطع أن يمنع دمعه من الفرار !

. . . .

. . . .

قضى الفتى ليلة سعيدة فى روما ، راح يحكى لمحسن ممتاز ومصطفى عبد العظيم الذى حضر ذلك اللقاء بالطبع ، كل مامر به خلال الشهور الماضية وبأدق التفاصيل وأشدها إملالا لكن حديثه بدا للرجلين كأحلى مافى الكون من أغنيات . . . ترك مصطفى عبد العظيم للفتى فرصة الحديث مع أستاذه وانتحى هو جانبا يستمع فى صمت ويشارك بين الحين والحين مجاملة . . . قال الفتى إنه يشك فى أن « يوسف الأزوع » على اتصال بالموساد ، لكن محسن استبعد هذا الاحتمال ، وعندما وصل الحديث الى « استير باينسكى » التمعت فى عينى محسن نظرة تأنيب فهتف الفتى :

« والله العظيم ماحصل حاجة ! »

« أنا متأكد !! »

« أمال بتبص لى كده ليه ؟ ! »
« علشان مايحصلش حاجة يارأفت ! »
« ده خطيبها ضابط احتياط فى رئاسة الأركان و . . . . »
« لأ ! »

خرجت الكلمــة من بين شفتى محسن كطلقــة مدوية أصــابت هدفها ، صمت الفتى فقال محسن :

« إبعد عن أى حاجة دلوقت ، ماحناش عاوزين منك غير تدعيم مركزك وحياتك ! »
« انت عارف دول بيعاملونى ازاى ؟ ! »
« ولو ! »
« واذا كانت الاخبار بتجينى لحد عندى ؟ ! »
« إديها ضهرك وخليك فى حالك ! »

رغم عنف الحوار ، وحدته أحيانا ، كان اللقاء حميماً . . . لم يكن مطلوباً إلى الفتى سوى تدعيم مكانته وسط المجتمع الاسرائيلى ، حتى اذا ما حان الوقت قام بدوره على الوجه الأكمل . . . ظل الحوار حتى ساعة متأخرة من الليل وقدم الفتى كشفاً بكل المصاريف التى أنفقها خلال الشهور التى مضت لكنه قدم تقريرا شفهيا عن أعمال المكتب وما استطاع إحرازه من نجاح محدود فقال محسن :

« معنى كده انك حاتحتاج فلوس قريب ! »
« لما احتاج حابقى أديلكم خبر . . . بس أنا خايف ! »

ثم راح يطرح الأمر بدقة متناهية ، ولو استمر الحال على ما هو عليه فلسوف يحتاج إلى نقود فى القريب حقا ولكن ليس هذا ما يشغله ، إن ما يشغله هو الخواجة شارل سمحون .

« ماله ؟ ! »
« ايه أخباره ؟ ! »
« بيستعد إنه يسيب مصر ! »
« حايروح فين ؟ ! »
« غالبا فرنسا »
« انت متأكد يا محسن بيه ؟ ! »
« دى المعلومات اللى عندنا لحد دلوقت ! »

قال الفتى إن من أشد الأمور أهمية ان يعلن عن مصدر المال لو أنه ذهب بمدد منه الى اسرائيل ، وليس هناك مصدر أجدر بالثقة بالنسبة للمحيطين به اكثر من الخواجة سمحون . . . قال الفتى إن أكثر ما أثار غيظه أنـه وجـد كل كلمـة فاه بها فى مقهى استانبيلوس بالقاهرة قد انتقلت الى إسرائيل ، حتى ذلك الحوار الذى دار بينه وبين الخواجة صروف مليونير حى الموسكى . . . قال إن من أشد الأمور أهمية بالنسبة إليه فى الـوقت الحـاضر هو السـاتـر الخاص بمصدر المال خاصة أن جدعون شاباتاى هو المشرف على الأمور الادارية والمالية . . . وهو لهذا كان يفكر فى أن يرسل من باريس ـ وهو لابد ذاهب إليها كى يثبت صحة البرقية التى وصلته ـ خطابا للسيد سمحون فى الأسكندرية ، وآخر لابنته ماجى . . . ولقد تردد فى طرح هذا الاقتراح حتى لا يتهمه محسن بأن نقطة ضعفه تجاه الجنس الآخر هى التى تدفعه إلى هذا .

« وليه ما تبعتش الجوابات دى من هنا ؟ ! »
« يعنى إنت موافق ؟ ! »

مد محسن يده فى جيبه الداخلى وأخرج « كارتى بوستال » ايطاليين

وهو يقول :

« أنا اشتريت دول علشان ابعتهم لمصر ، خدهم وأنا حاشترى غيرهم ! »

تناول الفتى الكارتين وهو ينظر الى محسن نظرة إعجاب فائق . . . أدرك على الفور أن استاذه لم تفته المشكلة فاشترى الكارتين قبل أن يلتقى به فلعله نسى !

« يعنى بلاش أبعت جوابات ؟ ! »

« مين اللى قال ؟ ! . . . ابعت الكارتين دول من هنا ، وابقى اكتب الجوابين فى باريس ! »

راح الفتى يرمقه فى صمت ، فابتسم محسن وقد أدرك ما يجول فى خاطره قائلا :

« مش كده يبقى أحسن ؟ ! »

« أنت مابتنساش حاجة أبدا ؟! »

« اذا كانت مصر بتدينى مرتب على كده ، انسى ازاى يارأفت ؟ ! »

قال الفتى مرحاً :

« يابخت مصر باللى زيك ! ! »

. . . .

. . . .

عندما وضع بين الثلاثة عشاء خفيف صاح الفتى فى مرح :

« أنا كنت لسه حاسألكم إن كنتوا سمعتوا عن اختراع اسمه الأكل ! »

سأله مصطفى :

« جعان يا رأفت ؟ ! »

« قوى ! »

سأله محسن :

« لكن أنت ما قلتليش ! »

« على إيه ؟ ! »

« مين اللى كانت بتتعشى معاك فى المطعم اللى على البحر يوم الأربع اللى فات فى تل أبيب ؟ ! »

توقف الفتى عن المضغ فاغر الفم ذاهلاً . . . ابتسم محسن متسائلا :

« ايه مالك ؟ ! »

قفز الفتى من مكانه صائحا فى احتجاج :

« ما هو أنا مش حاعيش ملاك يا محسن بيه ! »

ثم استدار نحو مصطفى مستنجدا :

« أنا أنسان . . . إنسان يا عالم ! ! »

وكان الغريب أن محسن ممتاز ومصطفى عبد العظيم راحا يتناولان العشاء فى صمت ودون كلمة أو تعليق . . . حاول الفتى أن يعود الى الحديث لكنه لم يستطع ، لم يكن هناك - أمام صمتهما الغريب هذا - ما يقوله ، ولم يعد الفتى ، ولا محسن ، الى الموضوع مرة أخرى ! !

قبل الفراق شد محسن على يده باسماً :

« ماسألتنيش على شريفة ! »

« خايف أسألك ! »

« جوزها اترقى ، بقى بكباشى ! »

« وهى إزيها ؟ ! »

« بمب !! »

« وطارق ؟ ! »

« دخل المدرسة ! »

تردد الفتى قليلاً فسأله محسن :

« عاوز تقول حاجة ؟ ! »

« ممكن أبعت لها جواب ؟ ! »

« بلاش دلوقت يارأفت »

قالها محسن فى اعتذار واضح ، هز الفتى رأسه موافقا ، هم محسن بالحديث كى يشرح وجهة نظرة لكن رأفت أوقفه :

« أنا عارف . . . أنا عارف ! »

تصافح الرجلان فى حرارة ، لكن الفتى انتزع يده من يد استاذه ثم ضمه إلى صدره فى قوة وحرارة ، استدار بعدها كى يصافح مصطفى ، ثم ، وقبل أن يفتح الباب ، همس :

« اشوفكم بخير ! »

وكان الذى دمعت عيناه هذه المرة ، هو محسن ممتاز !

الفصل الثالث

هل أحمل السلاح ضد وطنى

طار الفتى إلى باريس كى يقضى يومين حاول فيهما أن يعقد اتفاقا خاصا بالشركة . . . كانت العلاقات الفرنسية الاسرائيلية تمر فى تلك الأيام بأزهى مراحلها ، ولذلك فلقد أفلح جزئيا فى مهمته ، غير أن أهم ماكان يعنيه بعد أن غادر محسن ومصطفى فى روما ، هو العمل على استمرار علاقته بالسيد شارل سمحون ، ابيه بالتبنى وراعيه وممولة السكندرى . . . كان موقنا من أنه سوف يحتاج إلى المال فى القريب كى تستمر الشركة ، وأن محسن سوف يحول له ماسوف يحتاج إليه من مال . ولكنه كان يريد لهذا المال مصدراً شرعيا واضحا أمام الجميع فى إسرائيل . . . وبالرغم من أن محسن طمأنه تماما بأن أحدا هناك لن يهتم بمصدر المال مادام مايصله منه ليس فوق احتياجاته ، وان علاقات العمل بينه وبين شركات السياحة فى دول أوربا لابد أن تحول له بضعة آلاف من الدولارات ، وأن فى هذا غطاء كافيا له . . . بالرغم من كل هذا . فلقد كان قلقا أشد مايكون القلق . . . كان يرى فى علاقته بالسيد شارل سمحون ضمانا يواجه به الجميع فى إسرائيل ، ولذلك ، فلقد قضى ليلة كاملة من ليلتيه فى باريس كى يكتب خطابين ، احدهما لشارل سمحون ، والثانى لابنته ماجى

ظل الفتى طوال الليل ينتقى الكلمات بعناية ، كلمة وراء الأخرى . . . كتب لأبيه بالتبنى شارحا له كل ماحدث فى الشهور التى انقضت منذ أن غادره بالاسكندرية ـ كان الفتى يتحدث بالطبع عن الشركة والتمويل والشريك وما إلى ذلك دون ذكر إسرائيل أو تل أبيب أو أية أشارة إلى حياته الجديدة ـ ثم تحدث عن الكساد والتعثر اللذين يواجههما مشروعه الجديد ، وإن كانت احتمالات النجاح فى المستقبل ـ ومع بعض الجهد ـ تبدو مضمونة وأكيدة ، على الوجه الآخر كان الفتى حريصا كل الحرص على تقديم معلومات دقيقة وصادقة للسيد سمحون ، فهو لم ينس أن اخباره فى مصر وصلت إلى إسرائيل بدقة أذهلته ، ثم إنه كان حذرا كل الحذر من الوقوع فى اخطاء قد تؤدى ولو إلى مجرد تساؤل واحد ! . . . وعلى كل ، فان رأفت الهجان الذى أصبح الآن مواطنا إسرائيليا محترما اسمه ديفيد شارل سمحون ، رغم كل ماقاله فى خطابه ، لم يطلب ، لاتلميحا ولاتصريحا ، أى نوع من انواع المساعدة المالية . . . وإن كان قد طلب إلى الثرى العجوز الذى خاطبه فى أول الرسالة بكلمتى « أبى العزيز » أن يطمئنه بأية صورة من الصور وأى أسلوب من الأساليب ، عليه وعلى العائلة . . . ثم وضع فى نهاية الرسالة توقيعه :

« ديفيد ! »

أما ماجى فلقد كتب يبثها أشواقه ، ويحدثها عن المستقبل الذى يرجوه لنفسه ، وعن الحياة الجديدة التى لايزال يحبو فوق أرضها متعثراً وإن كان واثقا أشد ماتكون الثقة فى النجاح . . . كتب لها عن كل ماتريد أن تعرفه عنه دون أن يلتزم حيالها بوعد أو إحساس . . . وكان



لديه بالطبع عذره فى هذا ، فلقد كان المفروض أنه يكتب إلى « أخته » !

عندما وضع الفتى الخطابين فى ظرفيهما ، كتب اسم الدولة والمدينة فقط باللغة الفرنسية ، لكنه كتب العنوان مع الاسم بخط عربى جميل كان يتميز به منذ أيام دراسته فى مدرسة التجارة المتوسطة . . . ورغم أنه لم يكن هناك مايثير الشجن ، فإن رؤيته للخط العربى واسم مصر ثم الاسكندرية ، ثم . . . ثم كل هذا الذى كتبه ، بعث فى نفسه حنينا شديدا نحو الوطن ، حنينا كان عليه لا أن يقاومه فقط بل يقتله فى نفسه قتلا . . . فلسوف يطير الخطابان إلى مصر ، أما هو ، فلسوف يطير إلى إسرائيل !!

وهكذا عاد الفتى إلى تل أبيب وقد أدى ما عليه من مهام . لكنه كان يشعر بقلق كانت أسبابه ـ بالنسبةإليه ـ واضحة أشد مايكون الوضوح !

لم تكن الشركة بكل مشاكلها هى مبعث هذا القلق ، فهوفى النهاية سيحصـل على ما يريد من مال إذا ما احتـاج إليه ، ثم هو سوف يستطيع ـ بشكل أو بأخر ـ أن يجد ساترا مناسبا ومأمونا . . . ولم يكن « جدعـون شابـاتاى » ـ شريكه ـ هو مصدر قلقه أيضا ، فلقد كان الفتى يعرف أن للرجل أعمالا أخرى تلهيه عنه ، كما كان واضحا أن السيد شابـاتـاى يبـدو سعيدا مادامت الأمـور الاذارية والمـالية بين يديه . . . كذلك لم تكن حياة الفتى فى اسرائيل هى مصدر قلقه برغم مافيهـا من تعقيدات ، فلقـد اكتشف أن حذره وحرصه بل وحركته

المنضبـطة داخـل المجتمـع الاسرائيلى قد تحولت مع الأيام إلى عادة لاتكلفه جهدا .

كان مصدر قلقه بالتحديد ، هو سكرتيرته : « استير بلينسكى »

. . . .

. . . .

ولقـد كان الفتى صادقا كل الصدق عندما أقسم لمحسن ممتاز فى روما ، أن ليس بينه وبين تلك الفتاة البولندية الأصل أى شىء ، فلقد بذل جهدا مضنيا فى مقاومة « نقطة ضعفه » هذه حتى يظل بعيدا ـ بالعاطفة ـ عن الفتاة التى راحت تخترق حياته وتشرف عليها وتنظمها فى إصرار يبعث على الدهشة والارتباك معا . . . ليس فقط من أجل سلامتـه وأمنـه . فهو فى تلك المرحلة كان « نظيفا » ـ حسب التعبير الشائع من أية أدوات أو معدات أو أدلة . . . وكانت حياته عادية تماما . . . لكنه أراد ألا يعطى لجدعون شاباتاى الفرصة كى يمسك عليه تصرفا اعتبره هو فى البداية خطأ ، عندما أراد جدعون أن يوظف الآنسة « سيبيل يوسف » فى الشركة!

« أنا مش بأقول لك أبعد عنها يارأفت ، دى سكرتيرتك وأنت لازم يبقى عندك سكرتيرة ، أنا بس بأقول لك خليك حريص ، خصوصا من خطيبها الياهو جادوسكى ! »

هكذا قال له محسن ، ولقد كان على حق ـ بطبيعة الحال ـ فى طلبه هذا . . . فلقد كان الميجور الياهوجادوسكى ـ خطيب استير ـ ضابطا ملحقـا برئاسة الأركان . . . التقى به الفتى مرة واحدة ، تناول معه العشـاء فى مسكن استير عنـدمـا دعته ذات مرة كى تقدم كلا منهما للآخر . . . ومنذ اللحظة الأولى بدا له الميجور جادوسكى منفرا بالرغم

من أن الرجل استقبله فى ترحاب شديد واحترام بالغ بعد أن عرف من استير قصة كفاحه من أجل بناء وطن قومى لبنى جنسه ، الا أن الفتى وجد فيه ذلك النوع من البشر الذين حولوا عقدهم النفسية إلى أهداف قومية!! . . . وطوال تلك الليلة لم يكف « الياهوجادوسكى » عن الحديث عن نفسه ، عن طفولته وصباه المبكر فى بولندا ، عن اضطهاد اقرانه الصغار له ، لالشىء إلا لأنه يهودى . . . حكى ، بعد الكأس الرابعة ، كيف ودعه اقرانه فى الحى بالإهانات واللعنات عندما قرر أبوه الهجرة إلى فلسطين قبل نشوب الحرب العالمية الثانية ببضع سنوات . . . ثم حكى كيف انضم إلى « الهاجاناه » قبل أن يبلغ الخامسة عشرة من عمره . . . وإذا كان قد حكى ما لحقه على أيدى الأوربيين بألم بالغ لدرجة أنه كان يبدو بتقلص ملامحه أثناء الحديث وكأنه لايزال يعانى من هذه الاهانات حتى بعد مرور عشرين عاما ، إلا أن تلذذه كان واضحا وهو يحكى ما فعلوه مع العرب فى فلسطين ، كيف احرقوا القرى وأبادوا السكان وبقروا البطون وأعدموا الصغار ، وثقبوا ظهور النساء وهن يعدون هربا وخوفا وفزعا!

ولكن . . . بقدر نفور الفتى من الياهوجادوسكى ، كان انجذابه إلى خطيبته استير بلينسكى ، التى لم تكن تخفى إعجابها به ، وإن كانت ـ أمام خطيبها أثناء ذلك العشاء ـ قد تصرفت بتعقل شديد ، فهى فى الأيام الأخيرة قبل سفره إلى أوربا ، بدت وكأنها ارتبطت بالفتى ارتباطا لافكاك منه !!

كان الفتى يفكر بقلق بالغ فيما يمكن أن يفعله ميجور الاحتياط الملحق برئاسة الاركان الاسرائيلية لو أنه اكتشف هذا الحب أو

الإعجاب ؟ ! . . . حقا لقد اكتشف الفتى بعد أسابيع قليلة طبيعة تلك العلاقات العاطفية المبالغ فيها داخل إسرائيل ، والتى لا تختلف عن مثيلاتها فى مصر فقط ، بل فى كل الدول التى زارها من أمريكا إلى ألمانيا ، كان رأفت الهجان قد اكتشف أن هذا المجتمع يعيش فى حالة من التوتر الحاد والدائم تدفعه إلى الاستمتاع بالحياة فى شراهة وحرية تفوق أية حرية شاهدها أو عرفها أو حتى سمع عنها . . . فى البداية حيره هذا كثيرا ، وربما ساعده على الابتعاد عن الجنس الآخر ، لكن هذه ليست مشكلته الآن ، المشكلة التى تقلقه هى أن الأمر لو استمر على هذا المنوال . فلابد أن يأتى يوم يعلم فيه جادوسكى كل شىء . . . وهو ، مهما كان ، ليس أعمى . . . فما الذى يمكن أن يحدث فى ذلك الوقت ؟ !

ماذا يفعل ؟ !

بل ماذا يجب عليه أن يفعل ؟

هل يخوض معركة هو ليس فى حاجة اليها ولايسعى لها ولا يريدها ، أم يفصل استير بلينسكى من وظيفتها فى الشركة ويبتعد عنها ؟ !

سؤال ظل يلح عليه ـ طوال رحلته بالطائرة من فرنسا إلى إسرائيل ـ حتى هبطت الطائرة فى مطار « اللد » وكانت استير هناك ، تنتظره بشوق وقلق . . . ارتمت بين ذراعيه وتعلقت بعنقه بل وقبلته . . . ولم يجد بدا من الاستسلام حتى لايلفت أنظار المستقبلين فى المطار . . . ترك لها ذراعه كى تتأبطه ، ومضى إلى جوارها وقد تحققت كل مخاوفه ، واشتعل رأسه بالتفكير بحثا عن مخرج !!!

. . . .

. . . .

فى السيارة التى كانت، استير بلينسكى تقودها ، راحت تحكى له ، لاعما تم من عمل اثناء غيابه ، ولكن عنها هى ، عن شوقها اليه ، عن احساسها بأنها تعيش - بدونه - فى فراغ، عن قلقها البالغ والغامض والغريب الذى انتابها !

« ولم القلق ؟ !»

هكذا سألها بصوت بذل جهدا حتى يأتى طبيعيا !

« لست أدرى! »

« ولكن لابد من سبب »

« أعلم هذا ! »

« ثم أنى كنت أتحدث اليك تليفونيا كلما كان هذا ممكنا »

« ورغم هذا داخلنى إحساس فظيع بأنك بعيد عنى ، خاصة فى الأيام الأولى عندما كنت فى روما . . . كنت أشعر بأنك بعيد ، بل شعرت بما هو أفظع من ذلك ياديڤى !! »

تعودت أستير بعد بضعة أسابيع وبعد أن أصبحا صديقين أن تدلله باسم « ديڤى » فى السهرات أو إذا كانا على العشاء أو فى اللحظات الخاصة . . . وكان لابد للفتى أن يسألها عما شعرت به وكان - على حد قولها - فظيعا للغاية . . . !

« ظننت أنك لن تعود أبداً »

« استير ! »

هتف الفتى باسمها وقد تحققت الآن كل مخاوفه ، أدرك أنه لامناص من البعد عنها ، أحس أن سره المكنون يتعرض للخطر فقد تكشفه

مخاوف أمرأة تحب !! . . . أراد الآن أن يضع حدا لكل الأمور . . . حاول الحديث فلم يستطع ، كان لابد له ان يرتب افكاره أولا !

« ديڤى ! »

كان ساهما مستغرقا فى أفكاره فلم يرد ، عادت تناديه فى حنان متذمر

« ديڤيد !»

التفت نحوها دون رد

« فيم تفكر؟! »

« لاشىء ياعزيزتى . . . لاشىء ! »

« لابد أن اللاشىء هذا استطاع أن ينسيك وجودى ! »

التفت نحوها بكليته استعدادا لمعركة فاصلة :

« استير . . . ماالذى تريدينه بالضبط ؟! »

« أريد أن احبك ! »

« لاحظى أن الـ . . . . »

قاطعته :

« ألم تشعر بالشوق إلى ؟! »

مرتبكا قال :

« بالتأكيد ! »

« ولم لاتقول هذا؟! »

هتف :

« أستير . . أرجوك ! »

ثم ساد الصمت !

ساد الصمت حتى وصلا إلى مسكنه !

وهناك ، ووسط أضواء السيارة الغامرة لمدخل العمارة ، كان ضابط الاحتياط ، الميجور الياهوجادوسكى ، الملحق برئاسة الأركان الاسرائيلية ، يقف هناك ووجهه ينبىء بالكثير !!!

فهل وقع المحظور؟!

●●●

كانت مصر فى الشهور الأولى من عام ١٩٥٦ ، تخطو خطوات حثيثة نحو الاستقرار بعد أن حسم الصراع السياسى الذى دام ما يقرب من عامين ، بين رجال الثورة وبعضهم البعض من ناحية ، ورجال الثورة والقوى السياسية الأخرى ، والتى راحت تتساقط فى صمت يبعث على الأسى !

منذ شهور ، كان الشاب جمال عبد الناصر قد سافر إلى باندونج ، واستطاع ، وسط عمالقة السياسة فى آسيا وافريقيا ، ومع رجال من أمثال الزعيم الهندى جواهر لال نهرو ، والرئيس الاندونيسى سوكارنو ، ورئيس وزراء الصين شواين لاى . . . استطاع وسط حشد ـ هؤلاء نجومه ـ أن يثبت وجوده ، وأن يكتسب احترام الجميع ، ويؤكد قدراته كسياسى وثائر رغم أنه لم يكن قد أصبح بعد رئيسا للجمهورية .

فى شهر مارس سنة ١٩٥٥ شنت اسرائيل ـ دون مبرر ـ عدوانا على قطاع غزة أبادت فيه قوة مصرية كانت هناك ، وفى نوفمبر من نفس العام شنت عدوانا آخر على موقع « الصابحة » واغتالت عدداً لا بأس به من الجنود أيضا . . . وكان هذان العدوانان قد حددا الطريق أمام

الثوار الشبان . . . مما دفع جمال عبد الناصر إلى أن يخطب فى مناسبة افتتاح المبنى الجديد للكلية الحربية ، وتخريج دفعة ١٩٥٥ من الضباط ، ثم تسليم الكلية علمها الجديد ، خطب ناصر قائلا :

« لقد كلفت القائد العام للقوات المسلحة ـ عبد الحكيم عامر ـ بمقابلة العدوان بالعدوان ! »

كان الموقف متوتراً ، ولم يكن أمام مصر سوى طريق واحد ، هو ضرورة شراء السلاح بأى ثمن كى تحمى طموحات ذلك الجيل من أبناء مصر الذى انطلق فى كل اتجاه ، يبنى ويعمر ويشيد المصانع ويسابق الزمن الذى كان قد سبقه بمراحل ، كان لابد من طيها حتى نصل إلى موقع العالم من حولنا . . . واجتاحت البلاد حركة اجتماعية واقتصادية وسياسية وفنية راحت تتصاعد يوماً بعد يوم . . . ودخلت حياة الناس فى تلك الأيام ولأول مرة ، كلمات جديدة تماماً ، مثل : التخطيط والتنمية والفولكلور . . . وكان الاعلان عن صفقة الاسلحة التشيكية واعتراف مصر بالصين الشعبية كنوع من التحدى لسلطان الغرب الذى فرضه على مصر طوال سبعين عاماً خلت . . . كانت القوات البريطانية تنسحب من منطقة القناة ، ولم يكن باقيا ـ حسب المعاهدة المبرمة بين مصر وبريطانيا العظمى ـ سوى أسابيع ويخرج من البلاد آخر جندى بريطانى بعد استعمار جثم على انفاسها لعشرات السنين !

وانشئت مصلحة الفنون ، التى أصبحت فيما بعد وزارة الثقافة ، لم تكن مصر تعرف وزارات أو مصالح بهذه الاسماء من قبل ، ورأس المصلحة الوليدة واحد من ألمع كتاب الرواية فى مصر هو الاستاذ يحيى

حقى ، وانشىء المجلس الأعلى لرعاية الآداب والفنون ، كان يرأسه وزير التربية والتعليم كمال الدين حسين عضو مجلس قيادة الثورة ، ويديره واحد من ألمع كتاب القصة الشبان هو يوسف السباعى . . ووجد الشباب فرصة للتعبير عن أنفسهم بعد أن لمع فى الصحافة المصرية جيل جديد يحمل فكراً جديداً . . . وقفزت الموسيقى قفزة هائلة بظهور كوكبة من المطربين والمطربات تزعمهم شاب ريفى نحيل اسمر عذب الصوت اسمه : عبد الحليم حافظ . . . قاد تلك القفزة الموسيقية ثلاثة من الموسيقيين الشبان هم : كمال الطويل ، محمد الموجى ، ثم لحق بهم مجنون اسمه بليغ حمدى ! . . . وانشئت مؤسسة فنية جديدة عرفت باسم « مؤسسة المسرح » ، تولى رئاسة مجلس ادارتها واحد من أساتذة المسرح فى مصر هو الدكتور على الراعى ، كما تولى ادارة المسرح القومى الصاغ ـ رائد ـ أحمد حمروش ، وهو من ثوار يوليو المثقفين ، وكان عضوا فى تنظيم الضباط الأحرار ، ورئيساً لأول مجلة أسبوعية تصدرها الثورة هى « التحرير » ، كما أنه أصدر فى مايو ١٩٥٦ مجلة ثقافية جديدة اسمها « الهدف » حشد فيها أقلام عمالقة الأدب والفن والفكر والاقتصاد والعلوم . . . وطفرت الحركة المسرحية طفرة قام بها مجموعة من الشبان قدر لهم ان يقودوا الحركة المسرحية لسنوات طويلة قادمة ، لافى مصر وحدها ، ولكن فى العالم العربى كله . . . فى تلك الأيام لمعت اسماء نعمان عاشور ويوسف ادريس والفريد فرج وسعد الدين وهبه ولطفى الخولى ، ثم لحق بهم محمود دياب وعلى سالم فيما تلا ذلك من أعوام .

وعادوا من بعثاتهم إلى ايطاليا وفرنسا والاتحاد السوفيينى كل من سعد اردش وكرم مطاوع وجلال الشرقاوى وكمال يس ونجيب سرور . . .

وتلألأت على خشبة المسرح القومى ـ مع المخضرمين من اعضائه ـ أسماء مثل سناء جميل وسميحة أيوب ومحمد الدفراوى وشفيق نور الدين وتوفيق الدقن وحمدى وعبد الله غيث والممثلة الشابة التى راحت تتألق بسرعة : سهير البابلى !

وفى مسرح القطاع الخاص احتل فؤاد المهندس عرش الكوميديا من خلال الاذاعة فى برنامج ساعة لقلبك ، وعلى خشبة المسرح ، ولازمته الفنانة خيرية احمد ثم شويكار التى اقترن اسمه باسمها حتى تزوجا ؛ وبجوارهما كان دائما الفنان عبد المنعم مدبولى ومن حولهم عشرات الاسماء التى اصبحت نجوماً فيما بعد .

كانت مصر فى تلك الأيام تبدو وكأنها عملاق يصحو بعد طول سبات . . . وكان التغيير يتم بسرعة وفى كل اتجاه وفى كل مكان أيضا . . . وكان أمراً طبيعيا أن يؤثر هذا التغيير الذى شمل كل انحاء الدولة ، فى جهاز المخابرات العامة المصرية الوليد !

. . . .

. . . .

واذا كان هذا الجهاز قد ولد فى الأيام الأولى للثورة ، فإننا لانستطيع ان نجزم بأن « الفكرة » فكرة انشاء جهاز للمخابرات العامة ـ كانت واضحة فى الأذهان وضوحاً كافياً . . . ومن هنا يصبح أمراً طبيعياً ان تتغير القيادات العليا فيه مرة بعد مرة . . . وكان طبيعياً أيضاً ، ان يكون البحث عن « أسلوب » لادارة هذا الجهاز ، وتبين احتياجاته فى نفس الوقت ، هو الهدف الأساسى لكل قيادة . . . ولذلك ، فإننا

نستطيع ان نعتبر ان قرار تعيين الصاغ - رائد - صلاح نصر ، وهو واحد من أهم الضباط الأحرار قبل الثورة وبعدها ، كنائب لرئيس الجهاز قبل العدوان الثلاثى مباشرة ، ثم رئيساً له بعد ذلك . . . كان ايذاناً ببدء مرحلة جديدة وحاسمة فى حياه هذا الجهاز .

كانت الأحداث تتسارع فى المنطقة بعد شهور بدت رتيبة ، وشغلت معركة تمويل السد العالى أذهان الناس ، ودخلت المفاوضات الخاصة بها أطواراً خطرة وصعبة وتحولت إلى مساومات مرهقة . . . وفى مثل هذه الظروف ، ومع اعادة ترتيب البيت ، كان أمراً طبيعيا أن ينقل « محسن ممتاز » إلى وظيفةَ أكثر خطورة وأثقل فى المسئولية ، تستلزم منه الابتعاد عن مصر لشهور قد تطول . . . ولقد حدث هذا بعد لقائه مع الفتى فى روما ببضعة أيام ، فعندما عاد إلى القاهرة ، وجد أن المطلوب إليه هو الانتقال إلى وظيفة أخرى ، ولأنه جندى من قمة رأسه إلى أخمص قدميه ، فلقد أطاع الأمر ، وسلم ماتحت يده من أعمال وحالات إلى زميل آخر ، بعد أن شرح الأمور - كعادته - فى استقامة ووضوح !

كان جهاز المخابرات الوليد - كمنظمة - يشهد تغييرات جذرية . . . إدارات تضم إلى إدارات ، وأخرى تنشأ من جديد ، وثالثة تلغى . . . وواجبات ومسئوليات ، ووجوه جديدة أخذت تزحم الهدوء الذى كان سمة من سمات المكاتب فى ذلك المبنى . . . ووسط هذا كله ، كان مذهلاً ، بل ومزعجاً فى نفس الوقت ، أن يصل مصطفى عبد العظيم من أوربا ، وهو يحمل فى حقيبته كارثة !

رغم كل التعليمات ، والتلقين ، والالحاح ، والتشديد . . . فلقد كان مصطفى يحمل خطابا مكتوبا بالأسلوب السرى ، ارسله الفتى من اسرائيل ، يحوى معلومات شديدة الخطورة عن الطيران الاسرائيلى !

« . . . . أعرف انى سأتلقى تأنيباً عنيفاً لأنى خالفت التعليمات . . . ولكنى لم استطع أن أسمع كل هذا الذى سمعته ثم أقف مكتوف. اليدين . . . . . . »

. . .   .

. . .   .

فوجىء الفتى عند وصوله إلى البيت بصحبة استير بلينسكى من المطار ، بوجود الميجور جادوسكى فى انتظارهما ، أدرك أن ثمة كارثة على وشك الوقوع ، وأن مخاوفه تحققت قبل أن يحتاط لها جيدا . . . لكن المفاجأة الكبرى جاءته عندما قال جادوسكى - وكان يبدو فى عجلة من أمره - إنه جاء كى يودعهما قبل سفره الذى تحدد فجأة فى فجر اليوم التالى ، أى بعد ساعات . . . سألته استير عن وجهته فلم يجبها وإنما راح يتحدث مع الفتى عن الظروف المحيطة باسرائيل ، قال ان الجيش البريطانى سينسحب من قاعدة قناة السويس خلال شهور قليلة ، وان معنى هذا أن المواجهة بينهم وبين المصريين ستكون صريحة . . . قال ان غارتى غزة والصابحة جاءتا بنتائج عكسية تماماً ، فلقد لمع اسم « جمال عبد الناصر » الذى كان يسلح جيشه الآن بأقصى مايستطيع من طاقة . وكان يدربه عليه أيضا . . . ثم ، هاهى الولايات

المتحدة ، مع البنك الدولى ، سوف تقدم لمصر قرضاً ومساعدات فنية لبناء مايطلقون عليه اسم السد العالى !!

عندما صعد معهما إلى مسكن الفتى قال إنه لن يمكث إلا لدقائق لكنه قضى هنالك ساعة وبعضاً من ساعة تالية ، واحتسى عدداً لابأس به من الكئوس ، وتجنبه الفتى وتجنب توجيه أى اسئلة إليه فى البداية ، تركه « يفضفض » بما فى قلبه . . . كان جادوسكى متحفزاً لسبب مجهول للفتى ، راح الضابط يدمدم بأن اسرائيل يجب أن تتسلح حتى الأذقان ، ووصل الميجور جادوسكى إلى ذروة انفعاله هاتفاً :

« إن هذا لم يكن فى الحسبان . . . إن العرب يستيقظون ، والذى يوقظهم هو هذا الكولونيل العنيد جمال عبد الناصر ! »

ابتسم الفتى وهو يقدم إليه رباط عنق باريسيا فاخرا :

« رغم انى اعرف أنك لاتستعمل أربطة العنق ، فقد وجدت هذا مناسباً لك ! »

شكره جادوسكى وهو يأخذ رباط العنق فى فرحة طفل ، لكنه سرعان ماجمد تماماً كمن انتبه إلى شىء ، فرفع رأسه نحو الفتى قائلا :

« يبدو أنك لم تكن تستمع إلى ياعزيزى ديڤيد ! »

ضحك الفتى هاتفاً :

« الياهو جادوسكى . . . ليس فيما قلته الآن شىء جديد ! »

« هذا حقيقى ، ولكن علينا ألا ننساه ! »

أمده الفتى بكأس جديدة قائلا :

« ثم انى لا أرى علاقة بين سفرك وكل هذا الذى قلت ! »

« هل نسيت أنى ملحق برئاسة الأركان ؟ ! »

« وكيف أنسى ؟ ! »

تقدم جادوسكى من الفتى هاتفا :

« ديڤيد . . . لست أعتقد أنك بمثل هذا الغباء ! »

نهرته استير مغاضبة :

« الياهو ! »

وضحك الفتى فى براءة قائلا :

« جميل أن يكتشف الانسان حقيقته بعد عمر مثل عمرى ؟ ! »

« هل تظن أنى ذاهب إلى نزهة ؟ ! »

« أنا لم أظن شيئا ! »

عادت استير إلى التدخل :

« الياهو جادوسكى . . . إذا كنت تريد الافصاح عن شىء فافصح عنه وأرح نفسك ! »

هتف جادوسكى فى غضب :

« حتى أنت ؟ ! »

بدأت العراك :

« انك تبدو وكأنك تهذى ! »

« ولكنى لا أهذى ! »

« كف عن الشراب ! »

بدا الأمر وكأنه صراع خفى بين الفتى الصامت والميجور الغاضب ، فض الفتى الاشتباك بين الميجور وخطيبته قائلا :

« لابد أن لديك معلومات من الصعب أن تتوافر لمن كان مثلى ياعزيزى الياهو . . . فلا تلمنى ! »

« هذا حقيقى ! »

صاحت استير :

« ألا تستطيع أن تكف عن المباهاة أيها الرجل! »

قال جادوسكى وقد أرضاه اعتراف الفتى بجهله :

« ليس فى الأمر تباه ، ولكننا فى سبيلنا لعقد صفقة هامة! »

تشاغل الفتى عنه ، وأشاحت استير دون رد فاستطرد :

« سنطير فى الصباح إلى باريس ، هناك مفاوضات لشراء طائرات فرنسية !»

عاد الصمت يلف المكان فقال :

« ولكن الأمر فى غاية السرية . . . إنه فى غاية السرية !»

. . . .

. . . .

قال الفتى فيما بعد إنه حاول أن ينام فى تلك الليلة دون جدوى ، انصرفت استير مع خطيبها وتركاه نهبا لصراع عنيف ، قال إنه ظل يذرع البيت جيئة وذهاباً وقد أطفأ الأنوار وراح يقلب الأمر على وجوهه . . . استعاد كلمات محسن وهو يحذره من ارسال أية معلومات مهما كانت قيمتها فى الوقت الحاضر . . . اعترف بأنه لم يكن يعرف بالدقة قيمة المعلومات التى اتيحت له فى تلك الليلة فلقد كان يرى أن الأمر الطبيعى أن تتسلح اسرائيل ، فكر فى إرسال برقية إلى مصطفى عبد العظيم يطلب موعداً لكنه تراجع فما هو المنطق الذى يدفعه إلى السفر بعد وصوله بساعات من رحلةإلى الخارج استغرقت مايزيد على السبعة الأيام . . . فكر فى كتابة خطاب سرى فخشى من تأنيب محسن أو مصطفى . . . ظل نهباً للأفكار طيلة أيام وحاول أن ينسى الأمر

لكنه لم يستطع ، فلقد كان كل ما حوله يوحى بشىء غريب وخطير . . . كانت هناك محاولات لجذبه إلى الهستدروت ـ اتحاد النقابات الاسرائيلى ـ فذهب مرة ومرتين ووجد للأحاديث فى غرف هذا المبنى وردهاته طعما يختلف ، كانت الأحاديث عن مصر وعبد الناصر والخطر الذى يتهددهم يتزايد يوماً بعد يوم ، راحت مقاومته تنهار تدريجيا حتى وجد نفسه ذات مرة يشترى « ورق زبدة » ويعود إلى البيت ، يغلق النوافذ والأبواب والأنوار ويبدأ فى كتابة خطابه هذا الذى ختمه بقوله . . . . . .

« . . . . . . الشائعات تملأ البلد عن أشياء غامضة وغير محددة ، والحديث فى كل مكان عما يجب أن تفعله أمريكا والبنك الدولى تجاه تمويل السد العالى الذى يعلنون أن بناءه يشكل خطراً حقيقياً على اسرائيل ، ولكنى لاأرى شيئاً محدداً ولاأستطيع أن أقول بشىء محدد !»

●●●

من الصعب التكهن برد فعل هذا الخطاب فى القاهرة وكيف نوقش الأمر ، أو قيمت المعلومات التى حواها ، لكن المؤكد أن هذه المعلومات وجدت طريقها إلى القيادة السياسية مشفوعة بتقييم كامل لمصدرها !

ولقد كان الرد على الفتى أمراً مستحيلاً ومرفوضاً ، فكتابة خطاب سرى له محفوفة بمخاطر بلا حدود ، كان معروفاً الآن ـ ومنذ واقعة الصابحة فى ٢ نوفمبر عام ١٩٥٥ ـ أن ثمة توترا فى اسرائيل ، وكان معنى انكشاف الخطاب المرسل إلى الفتى بتلك الوسيلة البدائية ، هو

نهاية الفتى تماماً . . . كما كان من الصعب الرد عليه ببرقية ، وكان استدعاؤه إلى الخارج كفيلاً بإثارة الشكوك خاصة أنه عائد لتوه من رحلة استغرقت نحو أسبوع كامل . . . وهكذا ـ لابد أن الأمر كان كذلك ـ رئى أن أسلم الردود على الفتى هو الصمت والانتظار .

كان جهاز المخابرات العامة المصرية فى تلك الأيام يمر بمرحلة حاول الرجال فيها إيجاد تنظيم دقيق وعلمى للبناء الذى كان يوشك أن يوضع أساسه . . . وعلى كل ، فلقد كانت الشهور تمضى بسرعة ، والأحداث تتلاحق لاهثة ، خاصة بعد إعلان « جون فوستردالاس » وزير الخارجية الأمريكى ، والبنك الدولى ، سحب مشروع تمويل السد العالى بحجة أن الاقتصاد المصرى لا يستطيع احتمال مثل هذا المشروع العظيم . . .

كانت المحاولات والضغوط تتزايد على مصر كى تنضم إلى حلف بغداد ، ومع اصرار مصر على رفض الانضمام الى هذا الحلف أو غيره ، بدا الأمر وكأنه يخرج من أيدى القوى العظمى فى الغرب ، والتى تعودت أن تأمر فتطاع . . . وهكذا جاء سحب تمويل بناء السد العالى ، مثل لطمة وجهت إلى النظام الذى كان يحاول تثبيت أقدامه ، لافى مصر وحدها ، ولكن على خريطة العالم كدولة مستقلة ذات إرادة تنبع من مصالحها الخاصة وليس لأى اعتبار آخر !

أحدث سحب تمويل مشروع السد العالى دوياً فى العالم كله ، وهللت الصحف الاسرائيلية للقرار ، وبدت لعينى الفتى ـ وهو يعيش فى تل أبيب ـ تلك الفرحة التى اجتاحت ، لا أجهزة الاعلام

الاسرائيلية فقط ، ولكن المواطن الاسرائيلى العادى . . . أحس الفتى أنه يعيش فى محيط من العداوة المحمومة !

قال الفتى فيما بعد إنه عاش أياماً عصيبة مع تزايد الحملات ضد مصر والشماتة فيها ، واذا ما كان خطابه السرى الأول قد قوبل من هناك بالصمت التام ، فانه كان يشعر يقينا بأنه قام بواجبه الذى من أجله أرسل إلى هذه البلاد . . . ولذا ، فلقد تفرغ ، بل انهمك ، فى بناء سواتره، وانغمس فى حياته الجديدة التى كانت دائرتها تتسع يوما بعد يوم . . . واذا كانت استير بلينسكى الآن قد أصبحت خالصة له بعد سفر خطيبها الميجور ، فلقد حاول ـ باخلاص ـ أن يهدىء من حدة اشتعال عواطفها . . . قالت له ذات مساء وهما يتناولان العشاء فى مطعم على الشاطىء ، إن خطبتها لالياهو جادوسكى تمت تحت ضغوط عنيفة :

« ففى مثل هذا المجتمع المتنافر الذى نعيش فيه ، يصبح على المرء أن يقترب بقدر ما يستطيع من بنى وطنه ! »

هى بولندية كما أن جادوسكى بولندى ، وليس فى المسألة عصبية أو قبلية ، ولكن لابد للانسان من الاحساس بالأمان مع أقرب الناس اليه . . . ليس مابينهما حباً وجادوسكى يعلم هذا كما تعلمه هى . . . الحب شىء آخر على الانسان أن ينعم به رغم كل المعوقات والعقبات . . . استمع الفتى إلى شكواها بقلب مفتوح ، حاول أن يقاوم ، بذل جهداً حقيقياً وصادقاً ومضنياً ، لكنه اعترف ذات يوم أن مقاومته انهارت . . . كانت استير مرشدته إلى المجتمع الاسرائيلى ، كان تخليه عنها معناه أن يتخبط فى مجتمع أصبحت هذه الفتاة دليله

إلـيه . . . عرف كل شىء عن « الاشكيناز » - يهود الغرب - والسفارديم - يهود الشرق - وأدهشه - وربما أسعده - أن اليهود المصريين الـذين تجمعوا فى حى « حولـون » بتـل أبيب ، كانـوا يعاملون باحترام بالغ . . . كما أدهشه أن أغنى اليهود فى اسرائيل ، هم يهود العراق ! !

عن طريق استير دخل بيوتا عديدة ، وأقام صداقات مع قوم يشغلون وظائف هامة ومتنوعة ، ارتاد محلات الميسر فتعرف هناك على عدد لابأس به من المقامرين ، وارتاد البارات فتعرف على عدد آخر من مدمنى الخمر . . . فى حذر شديد أخذ ينمى علاقاته حتى تحين الفرصة فيلتقى بمصطفى وربما بمحسن ويطرح على أى منهما كل مايحيط به .

عاد الياهو جادوسكى من فرنسا وكان يبدو مثل الديك الرومى منفوش الريش واثق الخطى ، توطدت العلاقة بينهما فهدأت أعصاب استير بلينسكى . . . حتى جاء يوم السادس والعشرين من يوليو ١٩٥٦ ، وأعلن جمال عبد الناصر قراره بتأميم قناة السويس ، فاشتعلت النيران فى اسرائيل !

. . . .

. . . .

قال الفتى فيما قال بعد ذلك : إنه فى تلك الليلة لم يعرف للنوم طعماً ، قال إنه كان يشعر - بمتابعته للصحف الاسرائيلية والغربية - أن ثمة اشياء تزخم الجو من حوله ، تعود فى المساء - إذا ماعاد إلى البيت وحده - أن يحرك مؤشر الراديو إلى القاهرة ويخفض الصوت ويعيش فى وطنه للحظات ولو بالخيال . . . عندما انفجر خبر تأميم قناة السويس كان يجلس فى إحدى غرف الهستدروت ، اقسم أنه كاد يقفز من الفرحة ضاربا عرض الحائط حتى بحياته . . . كان ما أمامه يدعو إلى الجنون لا الغيظ فقط ، كانت هناك حمى اجتاحت كل شىء فى اسرائيل ، وجد أن الطريق الوحيد لسلامته أن يلتزم الصمت والتجهم ، ولاشىء آخر . . . فى صدره فرحة تزغرد بالفخر والسعادة ، وامام عينية وجوه متقلصة بغضب جامح ، وأفواه تطلق الكلمات كالقنابل والرصاص والبغض والرعب معاً . . . غادر الهستدروت واتجه إلى شارع « ديزنجوف » وكان كل شىء فيه يبدو وكأنه أعلن الحداد ، وجوه الناس مكفهرة وخطواتهم دبيب محموم نحو هدف غامض . . . أقسم الفتى أن إحساساً طاغياً استولى عليه فى تلك الليلة بأن إسرائيل لابد أن تصنع شيئا مجنوناً ، السؤال الذى حيره أكثر من غيره هو أن اسرائيل ليس لها فى القناة ناقة ولاجمل ، فلم كل هذه الهستيريا ؟ ! . . . سابق الدقائق إلى بيته ، كان يريد أن يختلى بمصر ، يريد أن يسمع صوتها فى الراديو ، يريد أن يطير إلى وطنه بأجنحة خيال اشتعل بالخبر الهائل ، ما إن دلف إلى البيت وأغلق الباب وأطمأن إلى أنه وحده حتى انفجرت الدموع من عينيه شلالاً لايتوقف ، ياهذا الاحساس الرهيب بأنك تنتمى إلى وطن عظيم ، أدار مؤشر الراديو وكانت القاهرة تعيد إذاعة خطاب الرئيس ، كان أول ماوصل إلى أذنيه هو صوت عبد الناصر يهدر كأحلى ماتكون الموسيقى :

« . . . . رئيس الجمهورية . . . »

« تؤمم الشركة العالمية لقناة السويس البحرية شركة مساهمة مصرية ! »

مع هدير الملايين فى جميع أنحاء العالم العربى ، هتف الفتى بصوت مختنق : « تحيا مصر » . . . كان صوته محموماً ، ودمعه غزيرا ، وقلبه يرقص طربا وفخراً ، ولم يعد يسمع بعد ذلك شيئاً ، استلقى على ظهره ، وترك صوت الزعيم يسرى إلى دمائه . . . فإذا هو إنسان آخر ! .

●●●

كان العشاء خفيفاً . . . اعده الفتى على عجل بعد أن فاجأته استير بلينسكى وخطيبها الميجور الياهو جادوسكى ذات مساء . . . كانت أسابيع طويلة قد انقضت منذ تلك الليلة المشهودة . . . ذات مرة قال الفتى ضاحكا : أنه كان العربى الوحيد الذى احتفل بتأميم قناة السويس فى غرفة مظلمة ! . . . وطوال الأسابيع التى انقضت منذ ليلة السادس والعشرين من يوليو عام ١٩٥٦ ، وحتى تلك الليلة التى جاءته فيها استير بصحبة خطيبها فى زيارة غير منتظرة ، كان يتابع الصحف والاذاعة بشغف وقلق مشوبين بخوف غامض ، كان قليل الخبرة بالمجتمع الذى يعيش فيه محدود العلاقات والصداقات ، يخطو فى حذر بالغ ويدير شئون شركته بأقصى مايستطيع من جهد حتى يؤجل - بقدر الامكان - طلبه للمال . . . لكن شيئا غامضاً كان يملأ

الجو من حوله برائحة البارود - كان هذا تعبير الفتى بالنص - ورغم هذا فهو لم يحاول ان يعرف شيئا ، لم يكن ليوجه سؤالاً واحداً لأحد . . . فعندما جاءه الصمت رداً على رسالته الأولى ، أدرك أن خير السبل هو اتباع نصائح محسن ! .

فى تلك الليلة من ليالى أكتوبر عام ١٩٥٦ ، كانت رياح الخريف قد بدأت رحلة عودتها محملة هذه المرة بالأخطار ، وكان الياهو جادوسكى يبدو مثل وحش حبيس . . . أدرك الفتى منذ فترة أنه كلما جاء بما يحمل من أخبار أو اسرار ، أصبح فى حاجة لمن « يفضفض » أمامه بما فى صدره ، ساعدته استير فى تجهيز العشاء وكانت ضحكاتها تملأ المكان بالسعادة ، اترع الفتى لالياهو جادوسكى كأسه مرة ومرتين وثلاثاً ثم وضع الزجاجة إلى جواره طالبا إليه أن يتولى أمر نفسه . . . وضعت استير فى « البيك آب » اسطوانة للموسيقى الخفيفة ، دارت الأحاديث حول ماكان دائرا الآن فى العالم كله ، دارت الاحاديث حول جمال عبد الناصر الذى تحطمت عند قدميه كل جهود الغرب فى العودة إلى الاستيلاء على القناة ، هتف جادوسكى فى لحظة وقد احتقن وجهه :

« لست أدرى ما الذى يريده هذا الكولونيل ! »

قال الفتى فى لامبالاة اليائس :

« ليس المهم مايريده الآن ، ولكن المهم أنه مازال صامداً أمام كل تلك الضغوط من حوله » .

زايد عليه جادوسكى متحدياً :

« ولكنه لن يصمد طويلا على كل الأحوال ! »

دق ناقوس الخطر فى رأس الفتى وهتفت استير مستنكرة :

«هل تظن أننا نستطيع شيئا حيال هذا الرجل العنيد ؟ ! » .
هم بالحديث فلاحقه الفتى منبهاً :
« لاتنس أنه استطاع الحصول على سلاح لجيشه ! » .
« لكننا لن نواجهه وحدنا ! »
كاد الفتى يصرخ دهشة لكنه تمالك نفسه مستطرداً :
« ولاتنس ايضا ان الانجليز انسحبوا من مصر منذ يونيو الماضى ! »
« لكنهم سوف يعودون !»
دق قلب الفتى بعنف . . . لم يكن هذا هو الخبر؟ ! .
« إنك تحلم ! »
هكذا قال ، فزايد الميجور :
« ومعهم الفرنسيون ! »
هتفت استير :
« هكذا أنت كلما أفرطت فى الشراب ! »
« لست سكران . . . ان هذا ماسوف يحدث قبل مرور اسبوعين ! ! ! ! »

قال جادوسكى هذا فهبط الصمت على الجميع ، رشف من كأسه رشفة ، وراح يتحدث ! .

. . . .

. . . .

.

فى اليوم الثانى والعشرين من اكتوبر عام ١٩٥٦ ، وصل ضابط المخابرات المصرى المقيم فى احدى العواصم الأوربية الى مطار القاهرة الـدولى ، وكانت الأحداث السياسية فى المنطقة وتطوراتها ساعة بعد

ساعة تملأ اسماع الدنيا، وبالرغم من وصول الطائرة بعد منتصف الليل بقليل ، فلقد وجد فى المطار سيارة فى انتظاره ، حملته فوراً إلى ذلك المبنى القائم وسط الحقول فى اطراف القاهرة . . . كانت برقية شفرية عاجلة قد وصلت منه قبل ساعات فقط ولذلك . . . فلقد كان هناك من هو فى انتظاره .

. سلم الرسالة التى وصلته فى صباح ذلك اليوم من تل أبيب . . . التى ، ما إنْ أظهـر مافيهـا من كتابة سرية عند الظهر ، حتى هاله الأمـر . . . فلقـد كانت الـرسالة تحوى معلومات غريبة غرابة تفوق الخيال ، وكـانت المعلومـات مشفوعة بمصدرها الذى كان هو نفسه الرائد الياهو جادوسكى ، الملحق برئاسة الأركان الاسرائيلية ، والذى حكى عن خطة محكمة لعدوان ثلاثى تقوم به كل من بريطانيا وفرنسا وإسرائيل فى الأيام القليلة القادمة !

كان الخطاب خطيراً ! !

والمعلومات التى يحويها بالغة الأهمية !

لكن الغريب فى الأمر ، أن هذه المعلومات التى وضعت تحت يد القيادة السياسية بعد ساعة واحدة من وصول مصطفى عبد العظيم ، والتى أرسلهـا المـواطن المصرى « رأفت على سليمان الهجـان » الذى يعيش فى اسرائيل تحت اسم « ديفيد شارل سمحـون »،كانت تلقى الضوء وتكشف الجوانب الخفية فى معلومات أخرى وصلت إلى مصر قبل يوم واحد ، من مصدرين على وجه التحديد ، وكان أحد هذين المصدرين فى باريس نفسها!

●●●

كانت آخر الكلمات فى رسالة الفتى تقول :

« . . . . لست أدرى ماذا افعل إذا استدعيت للخدمة العسكرية ؟ ! . . هل أحمل السلاح ضد وطنى؟ ! ! . . فليرحمنى الله ! ! »

الفصل الرابع

العثور على كنز مهمل !

عندما توقف عزيز الجبَالى عن الحديث فى ذلك المساء الثالث لوصول السيدة هيلين سمحون إلى القاهرة ، نظر فى ساعة يده ـ كما هى عادته كلما جاء إلى نهاية يوم معها ـ موحيا بأن حديث اليوم قد انتهى . . . ولكن السيدة سمحون كانت تبدو وكأنها وصلت الى ذروة التوتر ، فلقد هتفت :

« وهل حمل رأفت السلاح ضد وطنه ؟ ! »

زفر عزيز قائلا :

« لاياسيدتى ، لحسن الحظ أنه لم يفعل ، ولكن . . . . »

قال هذا ثم صمت ، وأخذت السيدة سمحون تحملق فيه وكانت عيناها الزرقاوان تشعان بريقاً غريباً ، أخذت ترقبه بإمعان فأحست ـ كما قالت فيما بعد ـ وكأن الكلمات كانت معلقة على طرف لسانه تمنعها شفتاه المزمومتان فى عناء . . . ولقد مضت لحظات بدا الرجل بعدها . . . وكأنه اتخذ قراراً هاماً ، فلقد قال :

« لكنه عانى أشد ماتكون المعاناة من جراء هذا العدوان . . . وظلم

ظلماً فادحاً ، واتهم بالتقصير والإهمال ، وحامت حوله الشكوك بأنه ليس سوى نصاب ومحتال ولا يسعى لغير المال ! ! »

صاحت هيلين مستنكرة :

« رغم كل مافعله ؟ ! »

قال عزيز موضحاً :

« لم يكن الخطأ خطأ الذين ظلموه . . . كما لم يكن خطأه هو أيضا ! »

بدا الأمر محيراً للسيدة سمحون ، وعاد عزيز ينظر فى ساعته وكأنه يتعجل الانصراف ، ففاجأته هيلين وكأن الفكرة خطرت ببالها تواً ، قالت :

« هر جبالى . . . هل تقبل دعوتى على العشاء الليلة ؟ ! »

اعترف عزيز الجبالى فيما بعد أن الأمر كان مفاجأة لم يتوقعها . . . وأنه راح يحملق فيها بدهشة . . . أحس وكأن هناك تقصيراً قد حدث فى ضيافة هذه السيدة ، خاصة أن « معلوماته » كانت تقول ، انها كانت تغادره إلى الفيللا التى تقيم فيها لاتبرحها حتى صباح اليوم التالى . . . رغم العروض الكثيرة والمغرية التى عرضت عليها للعشاء فى أرقى محلات القاهرة . . . أراد أن يذكرها بذلك فقال :

« فراو سمحون . . . لعلك تعلمين أن هناك دعوة مفتوحة لك لتناول العشاء ، بل والإقامة فى أى مكان ، لا فى القاهرة وحدها ، بل فى مصر كلها ! »

أدركت هيلين أنها أوقعت الرجل - الذى يتجشم كل هذا العناء من

اجلها فى حرج غير مقصود ، أرادت أن توضح له ماقصدت إليه فهتفت ضاحكة :

« ليس هذا ماقصدت إليه ياسيدى ! »

بدت علامات الاستفهام على ملامحه فاستطردت :

« ألم تلاحظ أن موعدى مع دكتور كارل جاروسلاف فى تشيكوسلوفاكيا أصبح وشيكا؟ ! »

« سوف ننتهى من كل شىء قبل الموعد ! »

« هل تظن أن هذا ممكن ؟ »

« مع بعض التركيز ! »

هتفت :

« ولكنى لا أريد تركيزاً ، أنا أريد التفاصيل مهما صغر شأنها ! »

قالت هذا ثم صمتت صمت من يستعد للإدلاء بخبر هام ، وظل عزيز صامتاً منتظراً حتى استطردت :

« بعد كل هذا الذى سمعته ، لم يعد الأمر خاصاً بولدىّ فقط هر جبالى . . . لكنه أصبح يخصنى شخصياً ! »

أطلت من عينى عزيز نظرة استفسار فقالت موضحة أكثر :

« انى أفكر فى أن اكتب كتابا عن حياة زوجى ! »

كانت وكأنها تدق ناقوس خطر ، فلقد هتف عزيز :

« حقاً؟ ! »

« لاحظ أن هناك جوانب فى القصة لم تعشها أنت ! »

ابتسم وهو يعيد اليها الكرة بسرعة :

« ربما . . . ولكن الا تصبرين حتى تعرفى مالم تعرفيه ؟! »

« ولهذا دعوتك إلى العشاء ! »

هم عزيز بالحديث لكنها أردفت :

« أعتقد أنا لو تناولنا العشاء فى شرفة الڤيللا التى أقيم فيها ، فلسوف تتاح لنا الفرصة لأن نستكمل الحديث ، ونكسب بعض الوقت ! ! »

مرة أخرى حاول الرد فحاصرته فى إصرار :

« إن الجو فى بلادكم رائع فى مثل هذا الوقت من السنة ! »

فتح فمه لكنها أسكتته معاتبة :

« لا تنس ياهر جبالى ، أنى منذ جئت إلى بلادكم وأنا أتناول العشاء - كل ليلة - وحدى ! »

ابتسم عزيز لعتابها الرقيق مستسلماً :

« لايسعنى أمام إصرارك ياسيدتى إلا قبول الدعوة ! »

نهضت مستبشرة :

« إلى اللقاء إذن ! »

« سأوافيك بعد ساعتين ! »

وكانت هيلين سمحون تفكر وهى فى طريق عودتها إلى الڤيللا ، وبمزيد من الدهشة ، فى حمرة الخجل التى صبغت وجه هذا الرجل وهو يقبل الدعوة . . لكنها لم تلبث أن ابتسمت مغمغمة :

« ياله من داهية ! »

. . . .

. . . .

عندما وصل عزيز الجبالى الى تلك الڤيللا القائمة فى أحد أحياء ضاحية مصر الجديدة ، كان يرتدى بذلة ذات لون داكن ، وكان رباط

عنقه بسيطا بلا نقوش ، لكنه كان يصنع - مع لون البذلة والقميص - نغمة لونية تنبىء عن ذوق رفيع . . . ولكن هذا لم يلفت نظر السيدة سمحون ، أو حرم المرحوم رأفت الهجان ، بقدر ما لفت نظرها أن عزيزا بدا بوجهه المتورد وبريق عينيه النشط ، وكأنه قضى يومه فى استجمام على حافة حمام سباحة تحت شمس دافئة . . . فتعجبت . لكنها لم تعلق !

استقبلته هيلين فى رداء هادىء اللون ذى ياقة مرتفعة ، وعلى كتفيها كان ثمة « شال » وردى اللون مصنوع من صوف فاخر ، فبدت وكأنها ملكة تجلس على عرش من صنع وجدانها . . . كانت تبدو وكأنها تشعر بفخر متزايد بما فعله زوجها الراحل !

غير أن الشىء الغريب الذى استوقفها حقاً ، هو أن « عزيزة » - تلك الفتاة الخمرية اللون ذات الجمال الدافىء ، والتى تلازمها فى مقرها السرى هذا منذ وصولها إلى القاهرة - تعاملت مع عزيز وكأنها تراه لأول مرة ، بل الأغرب ، أنها عاملته - بالفعل - كضيف يحل على صاحبة الدار - هيلين سمحون - التى قادته فوراً إلى ركن دافىء من الشرفة ، بعيدا عن تيارات الهواء البارد التى راحت تهب بعد غروب الشمس على القاهرة . . . وكانت المائدة المستديرة هناك ، على استعداد لاستقبالهما . . . وما ان اقتربا منها ، حتى أوسع عزيز من خطوته ليسبقها فى خطوات إيقاعية ، ويقدم لها مقعدها كأى « جنتلمان » . . حتى إذا جلست وخطا هو نحو مقعده قال :

« إن تقاليدنا يا سيدتى كانت تحتم علىّ أن ألبى دعوتك بصحبة زوجتى ! »

تابعته هيلين هاتفة فى لهفة :

« ولمَ لم تأت بها ؟ ! »

« إنها لا تعرف شيئا عن الأمر ! »

همت بالحديث فاستطرد مسدداً نظراته إلى عينيها :

« ويجب ألا تعرف ! »

كانت نظراته ثابتة ، ورده حاسماً وحازماً . . . فارتبكت هيلين سمحون ، ولم تجد أمامها ماتفعله سوى الهرب بنظراتها إلى حيث الحديقة الرابضة تحت أقدامها فى الظلام ، تزين أشجارها بعض اللمبات الكهربائية المتناثرة هنا وهناك . . وما لبثت أن رفعت رأسها نحو السماء التى كانت صافية فيها عدا نتفا من سحاب بدت كغلالات ملائكية تحيط وجه البدر المضىء . . . ثم مالبثت أن تمتمت فى تعجب :

« إن شتاءكم كالأحلام ! »

ولم يعلق عزيز . . . لكنه ـ ومع بداية طقوس العشاء ـ انزلق بها الى الحديث فى رفق !

●●●

قال عزيز الجبالى ـ أول ماقال ـ فى تلك الليلة ، إنه مضطر لأن يتوقف عن الاسترسال فى « قصة » الفتى عند هذه النقطة ، كى يلقى نظرة ـ يراها ضروية ولازمة ـ على المحيط الذى كان يتحرك فيه ، لا الفتى وحده ، بل جهاز المخابرات المصرى نفسه . . . ذلك أننا ـ بالضرورة وبحكم سياق القصة نفسها ـ نجد أنه منا مضطرين لأن

نقفز بالزمن قرابة عامين كاملين . . . منذ ماقبل العدوان الثلاثى فى أخر اكتوبر عام ١٩٥٦ ـ وهو تاريخ إرسال الفتى لرسالته الخطيرة تلك ـ وحتى منتصف شهر يوليو من عام ١٩٥٨ .

وبداية . . . لابد لنا من الاعتراف بأن العدوان الثلاثى الذى قامت به كل من بريطانيا وفرنسا واسرائيل على مصر فى عام ١٩٥٦ ، لم يكن بأى حال من الأحوال عملا يقدم عليه العقلاء . . . كان إقدام بريطانيا وفرنسا بالذات على حماقة مثل تلك التى اقترفها كل من جى موليه رئيس وزراء فرنسا فى ذلك الوقت ، وسير انتونى ايدن رئيس الوزراء البريطانى ، بمساعدة ديڤيد بن جوريون الذى قفز الى الحكم كى يحقق واحداً من أحلامه الدموية ، أمرا من المستحيل توقعه . . .

كما كان صمود مصر أمام ثلاثة جيوش ، وعدم استسلامها ، أو انهيار نظامها ، أو . . . سقوط جمال عبد الناصر الذى كان الهدف الأساسى لهذا العدوان ـ كما أكد الفتى فى رسالته ، وكما قال له الرائد الياهو جادوسكى الملحق برئاسة الأركان الاسرائيلية ، ثم وكما عرف وأذيع فيما بعد بوضوح ودون غموض ـ شيئا ألهب خيال العالم أجمع . . . وبصرف النظر عن الانذار السوڤييتى ، والموقف الأمريكى للرئيس دوايت ايزنهاور ، فلقد كان انسحاب جيوش تلك الدول ـ ومنها امبراطوريتان ـ نذيراً ببدء عصر جديد لدول العالم الثالث ، خاصة تلك الدول ، ومنها دول عربية ، التى كانت لاتزال ترزح تحت نير الاستعمار الأوربى !

بعد العدوان الثلاثى ارتفع نجم جمال عبد الناصر الى ذرا لم تخطر ببال أحد . . . وعاشت الشعوب المستضعفة أياماً مجيدة ، وبدت الأمة العربية ـ من الخليج الى المحيط ـ وكأنها تسيقظ من سبات عميق . . .

وبعد الفرحة التى هللت لها اسرائيل ، واجتاحتها وسيطرت الأوهام على رءوس قادتها لدرجة أن ديڤيد بن جوريون أعلن فى الكنيست الاسرائيلى ضم سيناء رسميا الى دولتهم . . . كان هناك احباط وحزن وحسرة مزقت الناس هناك بعد الانسحاب ، وقد أحسوا انهم أصبحوا يواجهــون خطراً حقيقيا لم يكن فى حسبــانهم ، وليس خطرا وهمياً يصرخون به فى أذان شعوب الأرض ـ وهم ينشبون أظافرهم وأسنانهم فى لحم العرب ـ طالبين النجدة ! !

« كان هذا ملخصاً لتقرير أرسله الفتى فيما بعد يصف فيه ، باستفاضة ، الحالة النفسية للاسرائيليين بعد انسحابهم من سيناء »

وكان طبيعيا أن تندفع مصر فى حماسة ـ بعد انحسار العدوان ـ ملتفتة الى الداخل كى تبنى بمزيد من الثقة ، وتعيد ترتيب البيت من جديد ، وعلى أسس جديدة . . . باحثة عن طريق يقودها للمستقبل المأمول !

فى نفس الوقت كانت الأحداث العالمية تتصاعد حدتها من حولها ، وكانت الثورة الجزائرية تقدم مئات الألوف من الشهداء ، ولكن عودها كان يشتد يوماً بعد يوم . . . وتحركت شعوب أفريقيا متململة وقد أصبح عبد الناصر رمزاً يقتدون به ، وتصاعد المد العربى بسرعة ، تصاعد حتى أعلنت الوحدة بين مصر وسوريا فى اليوم الأول من شهر فبراير عام ١٩٥٨

. . . .

. . . .

فى ذلك اليوم بالذات ، كانت هناك مجموعة من الشباب لايزيد

عددهم على الاثنى عشر شابا ، تدور اعمارهم جميعا حول سن الخامسة والعشرين ، يدخلون الى ڤيللا مهجورة تقع عند حافة صحراء الهرم الذى يطل عليها من فوق هضبته شامخاً . . . وكانوا ـ فى هذا اليوم ـ على موعد مع أول دورة تدريبية ، تقام على أسس علمية ، فى أول معهد أنشأه جهاز المخابرات المصرى لهذا الغرض !

كان عام ، وبعض عام ، قد مضى منذ انحسار العدوانى الثلاثى . . . وخلال تلك الفترة ، شهد الجهاز الوليد تغييرات كثيرة وجوهرية ، لا فى الأشخاص والمناصب فقط ، بل فى فلسفة الإدارة نفسها بعد أن اتضحت للقيادة السياسة ـ وقد تحررت مصر نهائيا ، حتى من المعاهدة التى كانت قد ابرمت بينها وبين بريطانيا فى عام ١٩٥٤ ـ أبعاد العلاقات الدولية فى صورة أشمل وأوضح ، وأهمية الحصول على المعلومات التى أصبحت واحدة من أمضى الأسلحة فى معترك هذه الكرة الأرضية !

وكان اليوم الأول من شهر يناير عام ١٩٥٧ ، إيذانا ببدء حركة نشطة ـ بل ومحمومة إن صح التعبير ـ لوضع نظام متكامل لكل نشاطات الجهاز ، وإداراته ، وعلاقة كل منها بالأخرى ، وحدوده ، واحتياجاته . . . كانت السنوات القليلة التى مرت قد أكسبت الرجال الكثير مما كانوا يجهلونه ، كما كان استجلاب خبرات الآخرين قد أصبح أكثر سهولة عن ذى قبل ، بعد أن تعاطفت معنا دول عديدة من الشرق والغرب على السواء . . . بل إن بعض هذه الدول راحت تخطب ود مصر التى أصبحت ـ بعد اتحادها مع سوريا ـ « الجمهورية العربية المتحدة » ، وبعد أن أصبحت هذه الجمهورية الوليدة قوة سياسية لايستهان بها ، لا فى منطقة الشرق الأوسط فقط ، بل فى العالم كله ،

حيث امتد تأثيرها إلى دول العالم الثالث فى أفريقيا وآسيا وبعض دول أمريكا اللاتينية !

كان جهاز المخابرات المصرى فى دور البناء حقاً ، لكن هذا لم يمنع أولئك الرواد الأول من الاندفاع ـ فى محاولة مستميته لحماية الجمهورية الوليدة من عشرات المؤامرات التى راحت تحاك من حولها ـ نحو العمل بكل الطرق والأساليب ، مستفيدين من الاحتكاك نفسه ، ومن أخطاء كان لابد ـ وبالضرورة مرة أخرى ـ أن يقعوا فيها

كانت هنـاك عمليات لابد أن تتم أثناء احتدام الصراع واحتلال سيناء سواء من ناحية اسرائيل وبريطانيا وفرنسا ، أو من ناحية مصر التى أدركت ـ وهى تواجه العداء فى أبشع وأخس صوره ـ أن حاجتها إلى المعلومات ، لا تقل أهمية عن حاجتها الى السلاح ، بل ربما إلى رغيف العيش !!

واستطاع الرجال ـ فى خطواتهم الأولى نحو التنظيم ـ بما هم من صداقات وعلاقات مع مجموعة كبيرة من الضباط الأحرار ، أن يضموا إلى الجهاز تلك العناصر التى عرفت بالصرامة والاستقامة والكفاءة فى نفس الوقت . . . ولقد استجاب لهم الكثيرون ، وتخصص كل منهم فى فرع من فروع هذا العلم . . . واستطاعت مصر ـ وقد أصبحت مطمحاً لصداقات العديد من الدول ـ أن تحصل هؤلاء الضباط على دورات تدريبية مكثفة ومنهكة ومتعبة ، فى عدد لابأس به من الدول التى تملك الخبرة فى هذا المجال ، سواء فى الشرق أو فى الغرب!

وكان طبيعيا أن تجرى حركة تنقلات بين الرجال مع إعادة التنظيم ، وكـان بدء الـدراسـة فى تلك الدورة التدريبية التى وقع الاختيار على

افرادها من جميع أفرع القوات المسلحة ، ومن الشرطة ، ومن المدنيين أيضـاً ، وانتقوا من بين عشرات غيرهم بعد اختبارات سرية صارمة ودقيقة وعديدة ، وكان بدء هذه الدورة هو الخطوة الأولى نحو تنظيم علمى ودقيق لهذا الجهاز الوليد .

تخرجت تلك الدفعة بعد ستة أشهر وقد تلقت دراسة مكثفة كانت تستمر يوميا من الصباح المبكر وحتى مابعد غروب الشمس ، وتولى التدريس فيها أساتذة فى كل فروع هذا العلم المركب . . . كان منهم من أمدته خبرته بالكثير مما أخذ ينقله إلى هذا الجيل الجديد ، ومنهم من كان قد التهم عشرات الكتب والمذكرات التى استجلبت من الخارج بشتى الطرق وبكل الوسائل ، فتشرب العلم وقوانينه ، وطور بعضها واحتفظ بالبعض الآخر ثوابت أساسية لاتتغير!

حتى اذا جاء منتصف شهر يوليو عام ١٩٥٨ تخرجت تلك الدفعة الأولى ووزع افرادها على إدارات الجهاز المختلفة ، والتى كانت الآن موزعة على عدد لابأس به من المبانى المتناثرة فى قلب القاهرة وضواحيها ومن حولها تحت أسماء وهمية لإدارات حكومية أو شركات لا وجود لها .

وكان ذلك المبنى القائم وسط الحقول عند أطراف إحدى ضواحى القـاهـرة ، والـذى كان فى الأصـل مستشفى للأمـراض العصبية والنفسية ، قد أصبح واحداً من تلك الإدارات المتعددة ، وكان نصيبه من شبـاب تلك الـدفعـة الأولى من ضباط المخابرات . . . ثلاثة ، تخصصوا جميعا فى التعامل مع اسرائيل .

من هؤلاء الشبان الثلاثة ، كان عزيز الجبالى !

●●●

فى احـدى ليالى النصف الثانى من شهر يوليو عام ١٩٥٨ ورغم انتصاف الليل منذ ساعة وبعض الساعة . . . كان الجو شديد الحرارة راكداً ، كما كان القمر محاقاً والظلام دامساً فيما يحيط بهذا المبنى الذى وضعت عليه منـذ مايقـرب من عامـين ، لافتـة كتب عليها « ادراة البحوث والانشاء » دون أن يعرف أحد أى بحوث تلك وأى إنشاء هذا الذى يتم بين جدرانه . . . كان الظلام جاثماً على المبنى فيما عدا ضوءا هنا وضوءا هناك فوق السور المحيط به . . . وكانت نوافذه كلها مظلمة فيما عدا نافذة واحدة كانت الإضاءة تبدو فيها مختنقة بحرارة الجو . . . بدت الغرفة بسيطة الأثاث ، ثمة مكتب خشبى متوسط ، خلفه مقعد وأمامه مقعدان من هذا النوع من المقاعد الخشبية التي كانت منتشرة فى مصر فى تلك الأسـام تحت اسم « مقاعد الظابط »، وفيما عدا المكتب والمقاعد الثلاثة لم يكن هناك شىء على الاطلاق سوى خزانة ، بدت بحجمهـا الكبـير ومنـظرهـا المتقدم ، متنافرة تنافراً زاعقاً مع الأثاث البسيط . . . كانت الخزانة من ذلك النوع الذى يفتح ويغلق بأرقام سرية لايعرفها إلا صاحب الغرفة فقط ، وكان الرقم فيما عدا هذا يحفظ فى خزانة أخرى . . . فى وسط الغرفة وقف شاب فى السادسة والعشرين من عمـره وقد خلع قميصه وأصبح عارى الصدر وكان بادى التعب والغيظ معاً . . . اتم « عزيز الجبالى » دورته التدريبية منذ أيام تعد على أصـابع اليدين . . . وكانت الدورة التدريبية قد فتحت له آفاقا من المعـرفة لم تخطر له على بال ، لكنها كانت آفاقا حولته من إنسان إلى إنسان آخر ، بعد أن اضاف التعامل مع الحقائق المجردة إليه الكثير من الدهشة ، وربما الفزع ، والعلم أيضاً !

راح عزيز الجبـالى فى وقفته تلك يحك جلده المبتل بقطرات عرق كانت تتساقط من جسده ووجهه كشلال لاينقطع ، وقد تناثرت فوق لحم الـذراعين والكتفين والظهر بقع حمراء صنعتها لدغات الناموس الذى كان يهاجم الغرفة من الحقول المجاورة فى أسراب وراء أسراب .

فى ذلـك اليوم بدا عزيز الجبـالى عمله ـ كالعـادة ـ فى الثـامنـة صباحاً . . . منذ يومين قدموا له مجموعة لا بأس بها من الملفات كان عليه أن يدرسها ويتفحصها ويقرا كل حرف فيها ، ثم ينظمها ويرتبها ويبـوبها ويستكمل سافيها من نقص ، كى يضع فى النهاية رأيه ، ثم يتولى بعد ذلك أمرها إلى عدد قادم من السنين كان لايزال فى علم الغيب !

كان كل ملف يعنى إنسانا ما فى مكان ما من الكرة الأرضية .

كان من إصحـاب هذه الملفـات أوربيون وأمـريكيون وافريقيون وآسيويون . . . وكـان منهم يهود يتعـاملون مع مصر ويكونون شبكة متماسكة الأطراف تغذى الدولة الفتية بمعلومات عن هذا العدو الذى اثبت ، بما لايقبل الشك ، انه متربص ومستعد دائما للانقضاض !

استغرق عزيز فى عمله حتى دهمه الليل ، لكنه مايكاد يتعامل مع شخصية من تلك الشخصيات حتى توقظه لدغة ناموسة ثقيلة الوطء ، لم يكن هناك جهاز تكييف ولا حتى مروحه ترطب قليلا من الجو الخانق وتحرك هواء الغرفة ، فقرر ذات لحظة أن ينصب للناموس مصيدة . . . فجـاء بطبق عميق ملأه بالمياه وزرع فى وسـطه شمعة أضاءها ، ثم أطفأ النور . . . واندفعت جيوش الناموس الهائمة فى الغرفة نحو ضوء الشمعـة تحوم حولها ، حتى اذا مستها النار ، اندفعت الى انعكاس الضوء فى المياة . . . وماتلبث أن تغرق !

كانت عشر دقائق تكفى للقضاء على الناموس فى الغرفة ، لكنها كانت كافية أيضا لاستجلاب الذكريات من الماضى القريب . . . ذلك أن علاقة عزيز الجبالى باسرائيل لم تكن جديدة عليه ، كانت علاقة ذات طابع خاص ، وإن شئنا الدقة ، فلقد كانت علاقة ذات طابع شخصى ، علاقة صنعها الاحتكاك المباشر فى الحرب الخفية والمعلنه ، وكان آخر حلقاتها هو أسر دام لأربعة أشهر مع عدوان عام ١٩٥٦ .

«تخرج عزيز الجبالى فى الكلية الحربية فى عام ١٩٥٣ ، حضر فيها عهدين : الحكم الملكى ، وقيام الثورة . . . فى نوفمبر عام ١٩٥٥ وقعت حادثة الصابحة وكان هو ضابطاً صغيراً برتبة ملازم أول ، وكانت الخدمة فى الجبهة شرفاً يتيه به الضابط فخراً . . . لكنه كان يعمل فى إحدى وحدات التدريب فى القاهرة ، وكان من ضمن خسائرنا فى واقعة الصابحة ، وحدة مدفعية هاون صغيرة استشهد معظم افرادها وأسر الباقون . . . وكان مطلوباً وحدة أخرى لسد الخسائر ، فتطوع الملازم أول عزيز الجبالى لسد هذه الخسائر ، وسافر إلى الميدان ورأسه ملىء بتلك القصص التى تتحدث عن مهارة اليهود فى القتال وقسوتهم ودقة تصويبهم وقدراتهم . . . ولأنه كان فى عنفوان شبابه ، فلقد قرر أن يواجه تلك المهارة والدقة والقدرات وأن يرد الصاع صاعين وأن ينتقم لزملائه الذين استشهدوا . . . اكتشف - منذ اللقاء الأول - أن

كل ماسمعه لم يكن سوى تهويل لا ظل له من الحقيقة ، وكانت الشهور التى قضاها هناك منذ ذلك الوقت وحتى وقوع العدوان الثلاثى ، شهوراً ملتهبة بنيران المدفعية ، واستطاع مع جنوده أن يحققا انتصارات شهد له بها حتى اليهود أنفسهم . . . غير أنه عندما عاد إلى القاهرة فى إجازة قبل العدوان ، سمع من الضباط - الذين لم يكونوا يعرفون شخصيته - عن « ولد زى الوحش » اسمه عزيز الجبالى يدوخ اليهود فى الجبهة ، وكانوا ينسبون اليه من الافعال والبطولات مالم يقم به !!»

أحس عزيز أن وقفته أمام النافذة قد طالت فاستدار نحو زر النور يبغى العودة الى العمل ، لكنه فى منتصف الطريق توقف وقد ألحت عليه الذكريات ، انقلبت حياته رأساً على عقب يوم سأله ذلك الضابط الكبير الذى كان قائداً له ذات يوم إن كان قد سمع شيئا عن خبر نقله من وحدته ، وكان قد عاد من الأسر منذ مايقرب من عام ، علمته تجربة الحرب والأسر أن خلاص مصر فى جيش قوى ، احتك بالاسرائيليين سلاحاً بسلاح ، ووجها لوجه ، واحتك بهم أسيراً ، وقال ذات مرة يصف تجربته معهم :

« أنا قاتلت الاسرائيليين فى قتال دواير وكماين وقتال مكشوف وبالسلاح الأبيض واسرونى واستجوبونى وعرفتهم كويس . . . كويس قوى! ! » . . . ثم عاد من الأسر كى يستعد - رغم صغر سنه - لدخول كلية « أركان حرب » . . . الجيش القوى هو الخلاص وهو

الملاذ : العلوم العسكرية تتقدم والأسلحة تتطور والحرب تتغير ولسوف تتغير ، وعلى هذا الجيل الذى ينتمى اليه أن يضطلع بمسئولياته !

عندما عرف من الضابط الكبير أنه نقل الى المخابرات العامة ، ثار وهاج وماج واحتج ورفض أن يكون جاسوسا على مواطنيه ، وأن يتحول من ضابط الى واش وكاتب للتقارير . . . استمع اليه الضابط الكبير فى صبر ، وقد أدرك أنه لايعرف شيئا عن عمل المخابرات ، ابتسم فى مواجهة ثورته ثم سأله إن كان يعرف النقيب « ماجد عثمان » . . . قال له إن ماجدا صديقه وزميله بل ودفعته ، فأعطاه الرجل رقم تليفون طالبا إليه أن يطلب ماجدا فى هذا الرقم ولسوف يعرف منه كل شىء !

فى اليوم التالى طلب ماجدا وكان يغلى بالدهشة والغضب وحب الاستطلاع معا . . . تمالك نفسه فى البداية فدار بينهما الحوار ـ كما كان دائما ـ مرحا فكها ، تبادلا التحية والسؤال عن الحال والأحوال ، فجأة قطع ماجد الحديث هاتفا :

« ماتيجى ياعزيز ! »

استُفز عزيز الجبالى فقال بصوت صارم :

« آجى فين ؟ ! »

أعطاه ماجد عنوانا ، وطلب إليه اذا ماوصل اليه أن يسأل عن السيد مصطفى !

« مين مصطفى ده ؟ ! »

ضحك ماجد على الطرف الآخر قائلا :

« لماتيجى حاتعرف ! »

« و عاوزنى آجى امتى ؟ ! »

« الساعة احداشر ونص بالليل ! »

استنكر عزيز فى دهشة :

« الساعة احداشر ونص بالليل ! »

فى برود سأله ماجد :

« انت بتنام الساعة كام ؟ ! »

غمغم منهياً الحوار وكانت الدهشة تعربد فى صدره . . . فى الموعد ارتدى ملابسه الرسمية ـ نمرة واحد ـ وتأنق كمن يريد أن يؤكد للجميع أنه ضابط بالجيش المصرى . . . كان العنوان الذى أعطاه إياه ماجد لڤيلا فى حى منشية البكرى بدت له من الخارج عادية تماماً ولاتختلف عما يحيط بها من المساكن . . . عند باب الحديقة الصغير علقت لافتة كتب عليها « الشركة العامة للبحوث الفنية » . . . قبل أن يقترب من البواب الذى كان يرتدى جلبابا ولاسة ويجلس فوق دكة تذكر أنه لم يعرف من ماجد لقب مصطفى هذا . . . وربما كان هناك مصطفيان أو ثلاثة ، فكر فى العودة والبحث عن تليفون قريب لعله يجد ماجدا فى ذلك الوقت فيسأله لكنه تراجع عندما تقدم منه البواب :

« افنـدم ؟»

« السيد مصطفى من فضلك ! »

« اتفضل ! »

لدهشتـه البالغة قاده الرجل الى الباب الداخلى للڤيلا ، كان بابا زجاجيا محاطا بحديد مشغول ، يجلس بجواره ـ فى الداخل ـ وخلف مكتب صغير ، شاب فى مقتبل العمر . . . سأل مرة أخرى عن السيد مصطفى فسأله الشاب عن اسمه ، ثم رفع سماعة التليفون وأدار رقما وهمس ثم أعادها قائلا :

« ثانية واحدة ! »

مضت بضع ثوان ظهر بعدها شاب آخر قاده إلى الطابق العلوى وسار به فى ممر شبه مظلم وفتح له بابا ماإن عبره حتى وجد نفسه أمام ماجد وجهاً لوجه ، صاح على الفور :

« فهمنى بقى إيه الحكاية دى ؟ ! »

●●●

وهاهو قد فهم وعرف وتعلم وأصبح جزءاً فى لعبة جهنمية ، عرف أن اسم مصطفى هذا ليس سوى الاسم « الكودى » لماجد ، كما أن اسمه لم يعد « عزيزا » بل اصبح « عثمان » . . . فى البداية كان الأمر يبعث على العجب ، ثم أصبح ـ بعد المعرفة ـ يبعث على الإعجاب ، عمل محفوف بالمخاطر ومحاط بالسرية ويتعامل مع الحقائق مهما كانت قسوتها برجولة . . . وعلى أكتافهم القيت مسئوليات جسام !

أحس عزيز الجبالى أن وقفته وسط الغرفة قد طالت ، سار الى زر النور وضغط عليه ليغمر الضوء الغرفة . . . عادت أسراب الناموس وعاد هو إلى ملفاته . . . كان يشعر منذ أن بدأ العمل وقرأ ماتحويه الملفات من ملحوظات وأعمال وانجازات وفشل ، وتطلع إلى صور رجال ونساء لم يلتق بهم من قبل لكن المطلوب إليه أن يعرفهم ويوجههم ويتعامل معهم ، أحس أن شيئاً ناقصا . . . هؤلاء رجال ونساء أغلبهم من جنسيات ثالثة ـ ليسوا مصريين ولا اسرائيليين ـ يمدون مصر بالمعلومات فى رحلات يدخلون فيها الى اسرائيل لكنهم ليسوا مقيمين فيها ، هناك كم لا بأس به من المعلومات حقاً ، ولكن ماينقصنا كثير . . . كان ينقب فى الملفات بحثا عن شىء غامض ، عندما حاول أن يبدأ من جديد أحس أن التعب يهد جسده هداً ، تذكر أنه يعمل منذ الثامنة صباحاً وأنه لم يتناول طعاماً سوى سندوتش فول وآخر

طعمية ، شعر أنه يتحرق شوقاً إلى كوب من الشاى بعد طبق مفعم بالبيض والبسطرمة ، ذلك الطبق الذى كان غرامه الغذائى لسنوات طويلة ، اتخذ قراره بأن هذا يكفى لعمل يوم واحد فبدأ يستعد للرحيل . . . . فتح الخزانة وراح يعيد الملفات إليها حسب ترتيب معين ، حمل أحدها فاذا شىء يسقط منه ، رباط عنق ذو ألوان صارخة ونقوش غريبة ، فعرف على الفور أنه وسيلة تعارف ، انحنى على رباط العنق وفتح الملف كى يعيده إليه فاذا صورة تطالعه . . . صورة صغيرة لشاب فى مثل عمره : وجه مستطيل وشفتان رقيقتان وعينان تصرخان بنداء غامض . . . وكما يحدث فى القصص الرومانسية الخيالية توقف عزيز الجبالى عند الصورة ، شدته نظرة العينين والابتسامة الكامنة خلف الملامح ، زحفت عيناه الى الاسم فوجد اسمين أحدهما مصرى ، والآخر اسرائيلى !

ودون أن يرفع عينيه عن الملف عاد الى مقعده بشعور طاغ بأن ثمة شيئا هنا يناديه . . . كان الاسم المصرى : « رأفت على سليمان الهجان » . . . أما الأسم الاسرائيلى فكان : « ديفيد شارل سمحون »

غلبه التعب فهم بإغلاق الدوسيه ، وإعادة رباط العنق إلى مكانه ، وكما يحدث عادة قلب ورقة ليلقى نظرة أخيرة وهو يهم بالنهوض إلى الخزانة المفتوحة ، وقعت عيناه على ورقة كتب فى اعلاها بخط واضح وجميل كلمة « وصية » . . . اجتاحه اضطراب غامض ، قلب صفحة أخرى بشعور لا إرادى ليجد ظرفاً متوسط الحجم أبيض اللون مكتوبا عليه بخط كبير : « لا يفتح الا بعد موتى ! »

كان الظرف مفتوحاً وفى أسفله تأشيرة بالحبر الأحمر تقول : « فتح

بمعرفتى » ، وكان التوقيع واضحا :

« محسن ممتاز ! »

وجمد عزيز فى مكانه .

شعر وكأن تيارا كهربيا يسرى فى جسده ويشده إلى مقعده بعنف ، عاد إلى الصفحة الأولى وتسمرت عيناه فوق الوصية ، لكنه لم يقرأ شيئا . . . إذن فهذه احدى عمليات « محسن ممتاز » الاسطورة . . . ذلك الضابط الشهير من الرعيل الأول الذى سمعوا عنه وتعلموا من تجاربه وأعجبوا به ، ولم يره أحدهم بعد .

عادت عيناه الى السطور ، فترك لها حرية القراءة :

« هذه وصيتى . . . »

« أضعها بين أيديكم الكريمة . »

« السلام على من اتبع الهدى . »

« بسم الله الرحمن الرحيم »

« إنا لله وانا اليه راجعون .

« هأنذا اقدم لسيادتكم وصيتى .

« فى حالة عدم عودتى حيا أرزق الى أرض الوطن الحبيب مصر ، أى أن تكتشف حقيقة أمرى فى اسرائيل . وينتهى بى المطاف الى المصير المحتوم والوحيد فى هذه الحالة ، وهو الاعدام شنقا . . . فاننى أرجو صرف المبالغ الآتية من مستحقاتى لديكم :

١ ـ لأخى من أبى عادل على سليمان الهجان ، القاطن فى رقم ٦ شارع الفيوم بمصر الجديدة ، مبلغ وقدرة ثلاثمائة جنيه مصرى لاغير . . . أعتقد أنه يساوى ـ أن لم يكن يزيد ـ عن المبالغ التى صرفها

على منذ وفاة أبى المرحوم على سليمان الهجان فى عام ١٩٣٥ وبذلك أصبح غير مدين له بشىء .

٢ ـ لأخى سليم على سليمان الهجان ، ومكتبه بشارع عماد الدين رقم ٩٢ ، مبلغ خمسين جنيها كان يدعى أنى مدين له به ، وليترحم علىّ إن أراد !

٣ ـ مبلغ مائة وخمسين جنيها لشقيقتى شريفة على سليمان الهجان ، حرم الصاغ محمد رفيق ، المقيمة بشارع الامام على رقم ١٥ بمصر الجديدة ، بصفة هدية رمزية متواضعة منى اليها وأسالها الدعاء لى دائما بالرحمة !

٤ ـ المبلغ المتبقى من مستحقاتى لدى سيادتكم يقسم كالآتى :

أ ـ نصف المبلغ لطارق محمد رفيق ، ابن شقيقتى شريفة والصاغ محمد رفيق ، وليعلم انى كنت أكن له محبة كبيرة .

ب ـ النصف المتبقى يصرف لأحد ملاجىء الأيتام .

« وبذلك أكون قد أبرأت ذمتى أمام الله بعد أن بذلت كل مافى وسعى لخدمة الوطن العزيز .

« والله أكبر والعزة لمصر .

« واشهد ألا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله .

ثم كان التوقيع : « رأفت على سليمان الهجان » .

. . . .

. . . .

حاول عزيز الجبالى ـ فيما بعد ـ أن يعبر عما انتابه من احاسيس وانفعالات ، ولكنه وجد صعوبة فى ذلك . . . كل ما استطاع أن يعبر

به عن نفسه ، هو أن دمعه فرت من عينيه مصحوبة بصدى صوت الاستاذ اسماعيل - ولم يكن العهد بعيدا بمحاضراته - وهو يؤكد ويلح وينبه ويوقظ :

« لا دخل للعواطف فى العمل . . . لادخل للعواطف فى العمل . . . لادخل للعواطف فى العمل ! »

كان قلبه يخفق فى عنف ، جمد فى مكانه ولم يعد يأبه ، بل لم يعد يشعر بلدغات الناموس الذى كانت اسرابه تعود فتقتحم نافذة الغرفة المضيئة . . . استعان على انفعالاته بسيجارة أشعلها وهو يحملق فى الصورة فاذا العينان تصرخان بذلك النداء الغامض . . . تململ فى جلسته إعياء ، وحاول الاكتفاء بهذا القدر كما حاول أن يغلق الملف لكنه لم يستطع ، كان صوت الاستاذ اسماعيل يطن فى أذنه ويحذره من فوران عواطفه . وعلى كل ، فلقد كتب عزيز الجبالى فى تلك الأوراق التى كتبها عن هذه العملية يقول :

« هكذا بدأت قصتى مع هذه العملية ذات ليلة حارة فى صيف ١٩٥٨ ، فى ڤيللا منعزلة بين الحقول ، وكنت قد انتهيت لتوى مع مجموعة قليلة العدد من الزملاء الشبان ، من إتمام دورة تدريبية متكاملة خاصة بالجوانب السرية من اعمال المخابرات ، وكنا مكلفين بالعمل على تطوير النشاط السرى الإيجابى ضد الدول المعادية لمصر على أسس علمية سليمة - وعندما قرأت ماقرأت لم أستطع أن أحبس دمعة فرت من عينى ، رغم أنى كنت أعرف ، بل كنت

مؤمناً بأن رجل المخابرات لايتعامل ويجب ألا يتعامل مع العواطف . . . وانما تعامله فقط ، مع الحقائق وجهاً لوجه ! ! »

●●●

وقد كان لابد لعزيز الجبالى أن ينحى عواطفه جانبا ، فاستيقظ عقله ، وراح يقلب الأوراق ، فاذا به أمام تقرير أرسله الفتى - بالاسلوب السرى بالطبع ! - فى منتصف أكتوبر عام ١٩٥٦ ، وكان نص ماكتبه رأفت الهجان فى بداية التقرير عن الحالة داخل اسرائيل :

« لقد أصيب هذا البلد بالجنون ، التعبئة العامة أعلنت ، التحريات العسكرية فى كل مكان ، والكل يجمع أن هناك عمليات عسكرية سوف تحدث ، والكل يستعد لهذه العمليات التى يقولون إنها موجهة ضد الأردن . . . . »

كان هذا التقرير الأول يصف الحالة فى اسرائيل والاستعدادت التى تجرى فيها والحشود التى تتجمع و . . . و . . . ويقلب عزيز الجبالى أوراق الملف فاذا به أمام تقرير آخر وصل الى مصر فى الثلث الأخير من نفس الشهر !

مره أخرى يرتجف عزيز بالانفعال !

عاد التيار الكهربى يسرى فى جسده فاذا حواسه كلها مستيقظة منتبهة واذا أعصابه مشدودة ، كيف ينسى هذا التاريخ وقد كان هناك على الجبهة يواجه العدو وجها لوجه ، يربطه بالعالم المشتعل من حول بلاده جهاز راديو صغير . . . وبعد أن كانت التحرشات بينهم وبين

الاسرائيليين يومية ، وبعد أن كانوا هم الذين يهاجمون الاسرائيليين ويتحرشون بهم وينصبون لهم الكمائن ويتسللون إليهم فى الظلام يدمرون ويقتلون وينتقمون لشهدائهم فى غزة والصابحة . . . جاءتهم الأوامر ـ فى الثلث الأخير من أكتوبر ١٩٥٦ بالذات ـ بعدم الرد على الاسرائيليين ووضع الأعصاب فى ثلاجة !

كانت الذكريات تطغى فى طوفان هادر لكنها انمحت مع أمواج عاتية بعث بها هذا التقرير الذى وقعت عليه عينا عزيز الجبالى ـ الذى كان اسمه الآن عثمان ـ فاذا قلبه ينبض بسرعة موجعة !

كان ما أمامه مذهلا !

وقع العدوان الثلاثى منذ مايقرب من عامين واندحر وانسحبت جيوش المعتدين وانكشفت الألاعيب لكن مابين يديه كان تقريراً وافيا ومذهلاً عما وقع بالفعل قبل أن يقع . . . بل ، قبل أن يتصوره أحد ! ! !

كان التقرير يتحدث عن رائد اسمه « الياهو جادوسكى » ملحق بهيئة أركان القوات الاسرائيلية ، وخطيبته استير بلينسكى . . . وكان يحكى ، فى دقة لاتصدق ، كيف سوف تصطنع اسرائيل خلافا مع مصر ، وكيف ستسقط بعض المظليين بالقرب من قناة السويس ، حتى اذا ردت مصر على العدوان وجهت كل من بريطانيا وفرنسا إنذارا للدولتين بالابتعاد عن قناة السويس شرقاً وغرباً لمسافة عشرة كيلومترات حفاظاً على المصالح الدولية . . . وكيف أن معنى هذا أن تترك مصر سيناء لقمة سائغة لاسرائيل التى سوف تقبل الانذار فوراً ، فاذا مارفضته مصر ـ بطبيعة الحال ـ فان هذا سيكون مبرراً لكلتا الدولتين أن تتدخلا وتحتلا منطقة القناة بأكملها !!!

ويستمر التقرير حتى نهايته ، يحدد الهدف من كل المؤامرة ، وهى : إسقاط جمال عبد الناصر !

كان التقرير مدهشاً فى دقته ، وكان تارخ وصوله إلى مصر قبل العدوان الثلاثى ببضعة أيام .

مرة أخرى ، كتب عزيز الجبالى فى أوراقه عما عثر عليه فى تلك الليلة يقول :

« . . . . كان ما أمامى مذهلاً بكل المقاييس ، فلو اجتمع سير انتونى ايدن ، ومسيو جى موليه ، وداڤيد بن جوريون ليكتبوا ملخصاً لخطتهم فى العدوان على مصر ، لما اختلف ماكتبوه عن هذا الذى أرسله رأفت أو ديڤيد . . . وهنا ، أصبح الأمر شخصياً بالنسبة لى . . . فلقد كنت أحد ضحايا هذا العدوان كمصاب وأسير . . . كان الوقت فى الهزيع الأخير من الليل وأنا انتقل من صفحة الى صفحة ، كنت أشعر أنى عثرت على كنز ثمين . . . حتى وصلت الى النموذج المرفق . . . . »

وصل عزيز الجبالى إلى النموذج المرفق ، وهو ورقة مطبوعة يكتب فيها الضابط المسئول رأيه فى هذا المندوب ، وما ان وقعت عيناه على الملحوظات التى كتبت حتى أصابه الذهول ، ولم يصدق عينيه . . لكنه كان لابد أن يقرأ . . . فقرأ عن رأفت الهجان الذى يعيش فى اسرائيل تحت اسم ديڤيد شارل سمحون ، أنه :

« جبان ! »

« لا يسعى بايجابية للحصول على المعلومات! »

« ويعتمد على الشائعات وما يسمعه من أحاديث الناس !! »
« كثير الطلب للمال ! ! »
وكانت التوصية الأخيرة تقول :
«أنصح بوضع حد لهذه العملية واعادة هذا المندوب الى مصر فهو لايصلح ! »
وحتى مطلع النهار ، لم يعرف عزيز للنوم طعماً !

الفصل الخامس

قصة المندوب ٣١٣

تلك ليلة كانت حاسمة فى حياة عزيز الجبالى ، ولا أحد يدرى ما الذى كان يمكن أن يفعله ذلك الشاب لو أنه عرف ماخطه القدر لعلاقته بهذا الانسان ، وعلى مدى عشرين عاما قادمة شهدا فيها الحلو والمر ، الهزيمة والنصر ، والنجاح والفشل . . . دون أن يلتقيا مرة واحدة . . . لا أحد يدرى !
غير أننا لانستطيع أن نغفل هذا العنصر الغريب والوافد والذى كان له ذلك التأثير السحرى على ضابط المخابرات الشاب . . . ومهما تعارضت هذه الرؤية مع ماكان يجب أن يكون ، ومهما اختلفنا فى الرأى ، فإننا لانستطيع الا أن نتوقف أمام تلك الكلمات التى فاه بها عزيز الجبالى ـ عن قصد بالطبع فمثله دائما ماينطق بحساب ـ عندما رأى صورة رأفت الهجان ، لانستطيع الا أن نتوقف ونحن نتساءل عن مدى ثبات القوانين الموضوعة ، والى أى مدى يمكن للانسان أن يأخذ بها وفى أى حدود ؟ ! . . . ذلك أن إحساسا غامضا وغريبا وغيبيا ، ربط عزيز الجبالى منذ تلك الليلة بصاحب هذه الصورة ، إحساسا كان يدفعه دفعا إلى التعاطف معه ، بالرغم من كل ماكتب عنه من ملاحظات متناقضة ـ هذه كلمة عزيز بالتحديد ـ تؤيده بعضها بتحفظ ، وترفضه أغلبيتها بلا تحفظ !

فى البداية جلس عزيز جامدا أمام الأوراق التى قرأها ، تمزقه الحيرة ، وتشده الصورة شدا وهو يحاول انتزاع نفسه من تلك الابتسامة الغامضة خلف الشفتين الرقيقتين ، وتلك النظرة المنادية . . . ولم يكن هناك سبيل إلى ذلك الا أن يكون منتبها صاحيا نشيط الجسد كما أنه نشيط الذهن متوقده . . . لم يكن هناك سبيل الا بأن ينفض عن جسده عرق عشرين ساعة من العمل المتواصل فى يوم قائظ وأن يستيقظ يقظة لاشك فيها . . . وهكذا قرر — رغم صعوبة الأمر — أن يستحم بماء بارد يستجلبه من تلك المضخة القائمة فى الحديقة بجوار جدار المبنى . . . ولقد فعل ، راح يسكبُ المياه على جسده بلا حساب ، عقله صاح متقد يعمل بنشاط يرهق جسدَه الذى لم يعرف الراحة منذ صباح الأمس ، كان قد انتبه وهو فى مكتبه الى بزوغ الفجر عندما سمع صياح الديكة الآتى من بيوت الفلاحين البعيدة عبر الحقول المحيطة ، صنع لنفسه كوبا من الشاى المصرى الداكن ، وضع الكوب أمامه وتجنب النظر الى الصورة ، وجهز ورقة بيضاء كى يكتب فيها ملاحظاته .

كان الملف الموضوع أمامه يحمل رقم « ٣١٣م » وبالتالى ، فلقد كان اسم صاحب هذا الملف هو « ٣١٣ » . . . هكذا يجب أن يتحدث عنه مع زملائه أو رؤسائه أو من يعنيهم الأمر ، هذا أسلوب عمل عليه أن يلتزم به . . . ثم ، ثم تبقى هنالك بضع حقائق لاسبيل إلى تجاهلها :

كانت الحقيقة الأولى تقول : إن صاحب هذا الملف شاب مصرى اسمه « رأفت على سليمان الهجان » ، وأنه يعيش فى اسرائيل تحت اسم « ديفيد شارل سمحون » اى أنه مزروع هناك . . فمن الذى زرعه ؟ ! . . . هل هو محسن ممتاز صاحب التوقيع على مظروف

الوصية المفتوح ، أم أنه ضابط آخر ؟ ! . . . وقبل هذا ، من هو رأفت أو ديفيد ؟ ! . . . ماهى قصته ؟ ! . . كيف تم تدريبه ؟! . . . ومن الذى دربه وإلى أى مدى وصل هذا التدريب ؟ ! . . . . ثم ، كيف اقنع الفتى ، وكيف أقتنع الفتى وكيف سافر ، وكيف يعيش الآن فى اسرائيل ، وتحت أى ستار ؟ ! ! .

هذه كلها أسئلة تحتاج إلى إجابات حاسمة ودقيقة . . . وفى الملف الموضوع أمامه ـ هذه حقيقة لامناص من الاعتراف بها ـ لم تكن هناك إجابات ، بل لم تكن هناك حتى إشارات . . . فكيف ؟ !

الآن فهم عزيز الجبالى ـ الآن فقط ـ المعنى الحقيقى لما قيل أثناء الدورة التدريبية ، من أن واجبهم الأول والأساسى وقبل أى شىء آخر ، هو إعادة ترتيب كل شىء وتنظيمه على تلك الأسس العلمية التى كانوا يتعلمونها !

●●●

قال عزيز الجبالى للسيدة سمحون عندما وصل إلى هذه النقطة بالذات . . إن بعض الناس ـ خاصة فى العالم الثالث ـ يخجلون من ذكر الأخطاء أو إعلانها إذا ماوقعوا فيها ، ويفضلون تجاوزها لا أمام الغير فقط ، ولكن ربما بينهم وبين أنفسهم ، وهذا بالطبع خطأ فادح ، ذلك أن ذكر الحقائق هو الخطوة الأولى لتفادى الأخطاء فى المستقبل . . . ولقد كانت الحقيقة السافرة فى هذه الحالة تقول إن الملف الخاص بهذا الفتى كانَ خاليا من كل الأساسيات المطلوبة بالنسبة لعملية خطيرة كهذه . . ليس عيبا أن نعترف بذلك ، فمن هنا بدأنا ، فلم تكن للرجال خبرة ، ثم . . . لم يكن من المعقول أو المتصور ـ حتى لو كان هذا من البديهيات ـ أن يقوم رجل مثل محسن ممتاز بعمل كل شىء فى كل حالة من عشرات الحالات التى كان يتولاها فى مصر

وخارج مصر . . . كان العمل كثيرا ، والحمل ثقيلا ، والمسئولية فوق طاقة أفراد كانوا يشقون طريقا للمستقبل وسط ركام من التخلف ورثوه ممن سبقوهم ! ! !

●●●

وعلى هذا فلقد أصبح عليه الآن ـ كتب هذا فى الورقة البيضاء ـ أن يجد إجابة لكل سؤال من تلك الاسئلة التى كانت فى ذهنه حول هذه « العملية » !

وإذا كانت هذه الحقيقة الأولى ، فان الحقيقة الثانية والواضحة فى هذا الملف هى :

إن هذا الفتى انسان بائس !

إن نظرة سريعة الى « الوصية » التى تركها ، ترسم صورة صارخة لعلاقته بأفراد اسرته ، باخوته بالذات ، وطبيعة هذه العلاقات التى لابد أنها كانت ـ على الأقل ـ متوترة . . . كان واضحا أنه انسان وحيد لايربطه بالدنيا شىء سوى شقيقة ترك لها بعضاً يسيرا من المال ، وابن شقيقة هو فى الغالب لايزال طفلا ، ترك له نصف ماتبقى ، والنصف الآخر لملاجىء الأيتام . . . إذن ، ففوق البؤس ، قد عانى هذا الفتى من اليتم !

أما الحقيقة الثالثة التى توصل اليها عزيز الجبالى فى ذلك الفجر الغريب ، وبعد أن قلب كل الأوراق وأعاد قراءتها ودراستها هى . أن هذا الفتى مهما قيل عنه من جبن وتراخ وما إلى ذلك فهو دون أدنى شك ، بطل: . . إنه هناك يعيش وحيدا ، فى قلب بيت العدو ، حياته معرضة للخطر ليل نهار ، ثم إنه ـ فوق هذا ـ « حالة » نحن فى أشد الحاجة اليها ، انه بالتحديد ذلك الشىء الناقص الذى كان يبحث عنه منذ صباح الأمس فى هذه الملفات ويفتقده ، هو عين مصرية خالصة

داخل اسرائيل ، وليس زائرا يلتقط الأخبار طائرا . . فكيف يوصف بالجبن من يعرض نفسه للخطر ؟! .

وتبقى الحقيقة الرابعة التى حيرّت هذا الضابط الشاب . . فلقد كتب فى تقريره عن العدوان الثلاثى اسم مصدره ، وهو الرائد الياهوجادوسكى ، ولقد كان هذا الاسم ـ لو أن الخطاب وقع فى أيدى السلطات الاسرائيلية ، وكان هذا وارداً جدا فى مثل الظروف التى كانت تعيشها اسرائيل قبل العدوان ـ كفيلا بأن يشير إليه ببساطة وأن يودى به دون جهد يذكر . . . فهل فعل الفتى هذا مغامراً بحياته حتى يؤكد لبنى وطنه صدق رسالته ، ويدفعهم الى الحذر والاحتياط مهما كانت الأخطار المحيقة به ، أم أنه فعل مافعله دون أن يعرف خطورة فعلته ؟ ! .

هل كان الفتى فدائياً . . . أم أنه كان غافلا ؟ ! .

هل . . . وهل . . . وهل . . . و . . . .

وعشرات الأسئلة التى راحت تضطرم فى رأس عزيز الجبالى حتى وصل الجميع من منازلهم فى الثامنة صباحا ، واكتملت أربع وعشرون ساعة منذ دخل هذه الغرفة فى صباح الأمس ! وبدأ فى هذا المبنى المعزول وسط الحقول يوم جديد . . . وكان أول من وصل منهم هو « محمد كساب » .

. . . .

. . . .

كان محمدٌ كساب شابا فى نحو الثلاثين من عمره ، أكثر مايميزه أنه كان جميل الطلعة ، خافت الصوت ، يبدو رقيقا مهذبا خجولا لدرجة تدعو إلى الدهشة . . لكنه اشتهر وسط الذين عرفوه جيدا . . . بأنه ذو قلب ميت ! !

ووسط الضبـاط الأحـرار عرف « محمـد كسـاب » بأنه واحد من الفدائيين الذين يتصدون لأكثر المهمات صعوبة وخطورة . . . يحكون عنه أنه عندما كان يضطلع بواحدة من تلك العمليات الفدائية الخطيرة الجسورة داخل لمعسكرات الانجليز فى القناة ، كان يقوم بها فى هدوء وبـرود يبعثـان بالقشعريرة الى الجسد . . . وفى أشد المواقف خطورة وحرجا ، كان يتصرف بحسم وقوة دون أن تهتز فى رأسه شعرة !

كان كساب هذا ، هو الرئيس المباشر لعزيز الجبالى الذى دخل عليه فى ذلك الصباح من يوليو عام ١٩٥٨ وهو يتأبط ملفاً ، ولم يكن الرجل قد استقر فى مقعده بعد !

« أنا عاوز اتكلم مع سيادتك يافندم ! »

« اتفضل ياعزيز ! »

ولقـد قال كسـاب فيما بعـد إن الأمـر بالنسبة إليه كان باعثا على الدهشة ، فلقد كان واضحا أشد مايكون الوضوح أن عزيز الجبالى لم ينم منذ صباح الأمس ، حول عينيه هالة سوداء تنبىء عن إجهاد وسهر متواصل ، ولم يكن هذا غريبا أو مستغربا ، لكن الغريب حقا هو أن عزيزا بدا فى تلك اللحظات من الصباح ، وكأنه يتأهب ـ رغم أسلوبه المهـذب ـ لدخول معركة . . . لذلك ، فلقد أعطاه كل اهتمامه وهو يرقبه فى انتباه بالغ !

وضـع عزيز الملف فوق المكتب دون أن يشير إلى صاحبه وجلس ، سأله كساب :

« خير ؟ ! »

«أنا عاوز أتكلم مع سيادتك عن المندوب ٣١٣ »

« مين ٣١٣ » .

« صاحب الملف ده ! »

قال عزيز هذا وهـو يقـدم الملف لكسـاب الـذى تنـاوله منه عبر المكتب ، وما ان فتحه وألقى عليه نظرة سريعة حتى أغلقه وهو يعيده إلى الضابط الشاب قائلا :

« آه . . . دى عملية فاشلة ! »

هم عزيز بالحديث فاستطرد رئيسه وكأنه ينهى الأمر برمته :

« عاوزين نرجّع الولد ده مصر بهدوء ونقطع بعد كده علاقتنا بيه ! ! »

« بس يافندم . . . . »

قاطعه كساب بصوته الهادىء وفى حسم باتر :

« انـا عارف انـك حاتتكلم عن التقـرير الـلى بعتـه عن العدوان الثـلاثى . . . بس دى كانت مرة وحيدة ولا اتكـررتش أبداً ، وكل المعلومات اللى بعتها بعد كده مكانش لها أى قيمة ! »

« أنا قريت الملف كويس ! »

« نبقى متفقين ! »

ألح عزيز :

« سيادتك مش شايف اننا ممكن نطوره ؟ ! »

« مستحيل ! »

«ليه يافندم ؟ ! »

مال كساب نحو الضابط الشاب ضاغطا على كلماته :

« لأنه جبان ، ومن يوم ماراح هناك لحد النهارده مالوش شغلانه غير إنه يطلب فلوس ويأمن نفسه ! »

« عنده حق يأمن نفسه ! »

نظر كساب نحو عزيز نظرة طويلة متفحصة ، لم يكن الأمر جديدا عليه بطبيعة الحال ، ولقد نبهته لهجة عزيز وردوده الجاهزة إلى توتره الشديد الذى عزاه - بينه وبين نفسه - إلى الاجهاد والسهر والتعب . . . ساد الصمت بينهما لثوان ثم :

« اسمع ياعزيز . . . مفيش داعى تضيع وقتك ! »

قال هذا ثم أردف :

«ده رأيى ! »

اندفع عزيز فى الحديث مدافعا :

« بس الملف مافيهوش أى حاجة عنه يافندم ، حتى تقصيره فى الفترة الأخيرة بعد العدوان الثلاثى ممكن مايكونش له ذنب فيه ! »

صمت كساب مبتسما وهو يحتضن بعينيه الشاب الملتهب بالحماس أمامه ، وعاد عزيز إلى الحديث فى حرارة :

« على الأقل نعرف إيه حكايته ! »

« أنت شايف كده ؟ ! »

« ده رأيى »

«يبقى لازم تتكلم مع محسن ممتاز !»

انتفض عزيز بالحماس لدى سماعه اسم محسن ، هتف :

« أنا شفت توقيعه على الظرف بتاع الوصية ! »

« لأن هو اللى فتح الظرف بنفسه ! »

« هو السيد محسن اللى بعته هناك ؟ ! »

« وهو الوحيد اللى يقدر يقول لك كل حاجة عنه ! »

وهكذا انتهى الحوار ، ونهض عزيز حاملاً الملف فى يده . . لكنه قبل أن يغادر الغرفة توقف كمن يريد أن يقول شيئا ، وقبل أن يفتح فمه ، قال كساب باسما وكأنه يقرأ أفكاره :

« محسن مسافر ، أول مايوصل تقدر تقعد معاه وتعرف منه كل اللى انت عاوزه ! »

• • •

لم يكن عزيز الجبالى يعلم أن رأفت الهجان - أو المندوب رقم ٣١٣ - كان مثار مناقشات طالت لأسابيع ، وأن مجموعة الضباط الذين التحقوا بالجهاز خلال العامين اللذين مضيا ، كانوا يسابقون الزمن فى محاولة للحاق بعصرهم بعد أن أرسلوا إلى الخارج - شرقا وغربا - فى دورات تدريبية وضعت أقدامهم - فقط - على أول الطريق الذى كانوا يعلمون كم هو شاق ، وكم هو طويل . . . من هذه المجموعة المختارة من الضباط ، كان ثمة ضابط شاب تخرج فى كلية أركان حرب قبل قيام الثورة ببضعة أشهر . . اسمه شريف والى !

وحتى منتصف عام ١٩٥٧ كان شريف والى لايزال ضابطا فى الجيش . . . وعندما قام بإجازته فى صيف هذا العام ، عاد من الاجازة كى يجد أمرا من رئيس الجمهورية بنقله إلى المخابرات العامة . . . وكانت كل فكرته عن عمل المخابرات ، هى تلك العلوم التى تلقاها فى كليه أركان حرب ، عن المخابرات الاستراتيجية والمخابرات التكتيكية وما إلى ذلك من علوم نظرية . . . وعندما تسلم عمله الجديد ، تسلم معه مجموعة مخيفة من الكتب العلمية التى وضعت بين يديه ، وكان عليه أن يلتهمها التهاما ، وأن يدرسها بعناية ، ويعيها وعيا كاملا . . . فموعد سفره الى الخارج كان يقترب . . تلك أيام كان هؤلاء الشبان يصلون فيها ليلهم بنهارهم وهم يكتشفون فى كل يوم ، ومع كل معلومة تضاف إلى معارفهم ، أنهم فى حاجة أكثر إلى العلم ،

وربما قبله ، التجربة العملية ، والاحتاك الملتهب الذى فرض على بلادهم وأمتهم . . .

ولقد سافر « شريف والى » فى بعثة قصيرة إلى إحدى دول أوربا ، عومل وتعامل منذ لحظة مغادرته بيته فى القاهرة فى طريقه إلى المطار ، بأسلوب سرى ، وكان قد زود بكل مايحتاج إليه من جمل شفرية كانت تقوده ، عبر مسارات مركبة ودول عديدة ، الى حيث أقام فى مكان منعزل بعيداً عن العمران فى دولة لايعرف لغتها ولاناسها . . . وكان عليه أن يقضى ، مع زميلين له ، فى هذا المكان المنعزل ، بضعة أشهر لايغادره ، يتلقى الدروس والتدريب منذ الصباح وحتى المساء ، ثم يقضى أغلب الليل فى القراءة والاستذكار والمناقشة . . . وبعد انقضاء شهرين كان الارهاق قد أخذ منه ومن زميليه كل مأخذ ، فارادوا الترفيه عنهم ، وإذا بهم يستقلون سيارة أسدلت على نوافذها الستائر ، واذا السيارة تحملهم إلى أحد مسارح أوربا الشهيرة ، كى تصل قبل بداية العرض بثوان ، ليدّخلوا المسرح من باب خلفى ، ويقودهم دليل - وسط الظلام - إلى مقصورة كان عليهم أن يغادروها إلى إحدى غرف المسرح قبل أن تضاء الانوار فى الاستراحات حتى لايراهم أحد أو تقع عليهم عين ! . . .

وما ان أسدل الستار الأخير حتى غادروا امكانهم إلى السيارة المنتظرة عند الباب الجانبى ، لتحملهم الى مقرهم السرى من جديد . . . وكان هذا هو الترفية الوحيد الذى قدم لهم خلال مايزيد قليلا على الخمسة الأشهر ! !

عندما عاد شريف والى من الخارج ، كان عليه أن يتولى مسئولية « هيئة الخدمة السرية » فى المخابرات العامة المصرية . . فى ذلك الوقت ، كان البحث عن تنظيم جديد ونهائى لايزال قائما ، وكانت حركات التنقلات والضم والفصل والانشاء والإلغاء فى الادارات والاشخاص هى لغة كل يوم . . . وما إن استقر الأمر لتلك المجموعة من الشباب الذين عادوا من دول شتى ، ودربوا فى مدارس مختلفة . . . كان عليهم أن يتدارسوا الأمر بعناية ، وأن يقارنوا بين اسلوب عمل واسلوب عمل آخر بحثا عن أسلوب مصرى « خالص » ، كان الرجال موقنين أن كل ماحصّلوه ، هو كل مايستطيع الأخرون أعطاؤه لهم ، وليس كل شىء !

كان أول مافعلوه عندما عادوا من الخارج ، هو دراسة كل « العمليات » التى تراكمت على أيدى الرواد الأول مثل حسن صقر ومحسن ممتاز . . . ولقد جرت بين الجدران مناقشات حادة وحارة كانت تستغرق الأيام تلو الأيام والأسابيع بعد الأسابيع ، كان على هؤلاء الشبان - مع رغبتهم العارمة فى التطوير والتنظيم - أن يواصلوا الدراسة ، الدراسة العلمية ، ودراسة تلك الحالات التى وضعت بين أيديهم لعشرات النماذج من البشر فى جميع أنحاء الأرض. . . وإذا بهم ذات يوم يصطدمون بحالة المندوب « ٣١٣ » الذى يحمل اسم « ديفيد شارل سمحون » فى اسرائيل ، بدلا من اسمه الحقيقى « رأفت الهجان » !

فى تلك الأيام كان محسن ممتاز فى الخارج ، حملته خبرته وجلده على العمل وقدرته على التعامل مع أنماط مختلفة ومتباينة من البشر ، إلى

مناطق عديدة من الكرة الأرضية . . عرف الرجال أن محسن هو الذى قام بكل العمل ، وكانت المعلومات التى بين أيديهم تشير إلى أن حصيلة الفتى ، فيما بعد العدوان الثلاثى ، كانت ضئيلة وغير ذات قيمة فى نفس الوقت .

كان مصطفى عبد العظيم قد انتقل من روما ، وتواتر على الفتى ضباط آخرون ، وبدأت الآراء والأفكار من حوله تتضارب ، فالفتى بطبعه جامح متمرد ولا أحد يعرف عنه ماكان يعرفه مصطفى أو محسن . . وطوال عام ١٩٥٧ وحتى منتصف عام ١٩٥٨ لم يكف الفتى عن طلب المال بحجة كساد سوق السياحة فى اسرائيل وتبرم شريكه « جدعون شاباتاى » ورغبته فى الانسحاب من الشركة ، وفى نفس الوقت كانت حصيلته من المعلومات متواضعة فراح يتلقى المؤاخذة تلو المؤاخذة والتأنيب بعد التأنيب . . . حتى إذا استقر الامر بالرجال فى هذا التنظيم الأخير ، انقسمت الآراء من حوله .

قال « شريف والى » فيما بعد : ان الأمر بالنسبة إليهم كان محيرا ، فكل الحالات التى تعاملوا معها كانت واضحة ومحددة ، إلا أن الفتى بدا لهم كشىء هلامى - هذا تعبيره بالضبط - فهو هناك فى قلب اسرائيل ليس فى متناول اليد من حيث السيطرة والمراقبة ومعرفة المحيط الذى يتحرك فيه . . . وهكذا انقسمت الآراء من حوله الى ثلاثة اقسام :

قسم رأى أن الفتى لايصلح بالمرة ، وأن ماحصل عليه من معلومات قبل العدوان الثلاثى جاء إليه بطريق الصدفة لا أكثر ولا أقل ، وعلى هذا ، فلابد من تصفية العملية وتوفير ماينفقه الفتى من مال كان يلح فى طلبه كل بضعة أشهر !

وكان هناك قسم آخر رأى أن الفتى يتعامل مع الاسرائيليين كما يتعامل مع المصريين ، وأنه تحول فى خلال العامين اللذين مضيا عليه هناك إلى « عميل مزدوج » ، وكان هذا القسم يرى أن القرار المطلوب هو : هل يتم التعامل معه على هذا الأساس . أم أن هناك أسلوبا آخر للتعامل معه كخائن !

لكن رأيا ثالثا قال بضرورة الاستمرار معه . . . كان الرأى الثالث يرى أن الفتى يصلح لأن يكون « خميرة » فى قلب مجتمع تل أبيب ، وأن هذه « الخميرة » من الممكن أن تنمو وتتطور وتستغل باسلوب علمى يعطينا منها أكبر قدر ممكن من الفائدة .

استمرت المناقشات طويلا لكنها لم تصل الى نتيجة حاسمة ونهائية . . . قال شريف والى أنه كان مطلوبا - سواء استقر الأمر على هذا الرأى أو ذاك - التحرك بحذر شديد ، فالرجال كانوا يعلمون أنهم يتحركون فى مواجهة جهاز مخابرات قوى هو الموساد ، فوق ان التسليم المطلق بأن الفتى ليس عميلا مزدوجا وأنه لايزال على العهد أمربدا شديد الصعوبة بعد تلك السنوات التى عاشها الفتى فى اسرائيل . . . وعلى هذا ، فلم يكن هناك مفر من مواجهة رأفت الهجان والاحتكاك به مباشرة ومعرفته وإعادة علاقته الطبيعية مع وطنه . . . وحتى هذه الخطوة ، كان من الصعب الاقدام عليها قبل عودة محسن ممتاز من الخارج واشراكه فى المناقشة أو على الأقل استكمال المعلومات اللازمة عن الفتى منه . . . كان شريف والى - من موقع المسئولية - ينتظر عودة محسن ، أو بمعنى أصح ، ينتظر أن يغلب رأى رأيا ! !

. . . .

. . . .

لم يكن عزيز الجبالى يعرف شيئا عن هذا الذى تم ، كل ماكان يعرفه ـ وقد عاد الى الانهماك فى العمل والتنظيم والترتيب والتقييم ـ أنه فى انتظار عودة محسن من الخارج كى يجلس إليه ويسأل ويعرف منه كل شىء عن صاحب تلك الصورة الغامضة والابتسامة المنادية !

يعترف الضابط الشاب الذى أصبح اليوم كهلا تخطى الخمسين من عمره ، أنه كان بين الحين والحين ، يخرج الملف من الخزانة ، وكان قد وضعه فى مكان خاص ، كى يجلس اليه يقلب الأوراق ، ويقلب الأفكار أيضا ، ثم يلقى بعينيه إلى الصورة ، فإذا بها تناديه ذلك النداء المجهول رغم مرور الوقت وبرود الانفعال !

طالت غيبة محسن فى الخارج لثلاثة أسابيع كاملة . . .. وفى عمر ذلك الزمان ، كانت الأسابيع الثلاثة كافية لأى تغيير أوتبديل أو تطوير أو نقل . . . تماما كما حدث مع محمد كساب الذى أسندت إليه مهمة استدعت مغادرته القاهرة فى البداية ، ثم مصر كلها بعد ذلك !

وعاش عزيز الجبالى أياماً يتخيل فيها لقاءه مع محسن ممتاز . . . لم يكن قد التقى به من قبل ، لكنه بالطبع سمع عنه الكثير . . . حتى كان ذات يوم من ايام اغسطس عام ١٩٥٨ ، وكانت الساعة قد تجاوزت الخامسة بعد الظهر . وكان عزيز منهمكا فى العمل عندما فتح باب الغرفة ، ووقف فى فراغه عملاق رياضى الجسد يحمل فى كل يد من يديه حقيبة بدت ثقيلة ، وربما مثقلة بما فيها من أوراق واسرار . . . رفع عزيز الجبالى عينيه إلى الوافد فأدرك على الفور أن هذا الذى اقتحم عليه خلوته ليس سوى محسن ممتاز ، فهتف مرحباً :

« أهلا يافندم ! »

« أنت عارف أنا مين ؟ ! »

« اكيد سيادتك السيد محسن ! »

برقت عينا الرجل المخضرم ببريق لم يغب عن عينى الضابط الشاب . . . . قال محسن :

« قالوا لى انك عاوز تشوفنى ! »

«انا مش عاوز اشوفك بس يافندم . . انا محتاج لسيادتك ! »

ابتسم محسن ، ربما لبراعة الشاب فى الحوار ، وخطا نحو الداخل وهو يغلق الباب بقدمه ويضع الحقيبتين على الارض ، وقبل أن يجلس ، أشعل لفافة تبغ نفث دخانها فى الهواء ثم جلس على أحد المقعدين الموضوعين أمام المكتب ، فجلس عزيز وقد تعلقت عيناه بوجه الرجل الذى خط الشيب شعره فأضفى على الملامح مهابة واحتراما ! .

« خير ياأخ عزيز ! »

« انا عاوز أتكلم مع سيادتك حوالين المندوب ٣١٣ »

« مين ٣١٣ ده ؟ ! »

اندفع عزيز نحو الخزانة وعاد يحمل فى يده ملف الفتى .

« رأفت الهجان »

« آاااااه »

هكذا قال محسن ، وهكذا بدأ الحديث بين الرجل المثقل بالأعباء ، والضابط الشاب الذى كان يستعد لحمل مسئولية أشد ماتكون ثقلا وخطورة فى نفس الوقت !

●●●

كانت الساعة تشير الى الثانية والنصف بعد منتصف الليل ، عندما غادر محسن وعزيز ذلك المبنى القائم وسط الحقول . . ؛ طال الحديث

بينهما لساعات حكى فيها محسن ـ بالتفصيل ـ قصته مع الفتى منذ أن كان الأمر فكرة فى رأسه ورأس حسن صقر ، وحتى سافر الفتى إلى اسرائيل . . . سأل عزيز وألح فى السؤال ، وأجاب محسن وأفاض فى الاجابة . . . غير أنهما ـ وقد جلسا الآن متجاورين فى سيارة عزيز الصغيرة يقطعان الطريق إلى قلب القاهرة عبر الضواحى والطرق الجديدة التى كانت تشقها الثورة فى كل مكان من العاصمة ـ كانا صامتين تماما ، غرق كل منهما فى خواطره وأفكاره وقد أثارت قصة الفتى شجونا كامنة ، وكانا يبدوان متعبين منهكين ، حتى اذا ماتوقفت السيارة أمام بيت محسن فى أحد أحياء القاهرة الشهيرة ، التفت هذا نحو عزيز متسائلا :

« تفتكر انك حاتقدر تعمل حاجة ياعزيز ؟ ! »

« ان شاء الله ! »

قال الضابط ماقاله فى اقتضاب من كان يعرف ثقل الحمل الذى ألقى على كتفيه . . .

ثم افترقا .

افترقا وكان محسن يشعر ـ يقينا ـ بأنه يترك قطعة من لحمه وعمره أمانة فى يد ضابط صغير السن متفجر بالحماس والنشاط . . . وكان وهو يصعد الدرج نحو مسكنه يتساءل عن مصير الفتى . . . كان موقنا أنه لن يعرف عنه شيئاً بعد ذلك ، بل ، كان موقنا أنه يجب ألا يعرف عنه شيئا بعد ذلك ! ! !

●●●

أيقن شريف والى رئيس هيئة الخدمة السرية بالمخابرات العامة

المصرية فى ذلك الوقت ، أن الضابط الشاب عزيز الجبالى سوف يطلب مقابلته بين يوم وآخر . . . عرف بطبيعة الحال أنه تحدث مع محمد الشاب فى أمر المندوب ٣١٣ ، كما عرف أيضا أنه التقى بمحسن ممتاز ل نفس يوم وصوله وجلس إليه لساعات طالت إلى مابعد منتصف الليل بساعتين ونصف . . . كان موقنا أن الضابط الشاب قد توقف امام هذه الحالة التى حيرته كما حيرت الرجال . . . وهو لم يشأ أن يبادر بسؤال عزيز عما وصل اليه أو ماينتويه ، بل فضل أن يترك للأمور أن تأخذ مجراها الطبيعى ، لكنه ـ بالقطع ـ كان مشوقا ـ وسط مشاغله الكثيرة ـ لأن يعرف رأى هذا الضابط الجديد .

وفى حقيقة الأمر إن مشكلة المندوب ٣١٣ كانت تشغل باله هو الآخر . . . . وإذا كانت المناقشات التى تمت حول هذه الحالة لم توصلهم الى نتيجة حاسمة ، فهاهو عنصر جديد ، ودم جديد ، يدخل الى حلبة المناقشة كى يدلى برأيه .

ولكن . . . . إلى أى رأى كان يميل شريف والى ؟ !

قال الرجل بعد سنوات طويلة ، وبالحرف الواحد :

« كان الأمر بسيطا ، فلقد كنا مختلفين على الورق . . . ولم يكن أمامنا سوى أن نتصل بالفتى اتصالا مباشراً كى نعرف من هو وجها لوجه ، ثم نتخذ بعد ذلك قرارنا ! »

ولذلك فما ان طلب عزيز الجبالى من رئيس هيئة الخدمة السرية مناقشة « عملية » رأفت الهجان ، حتى وجد من الرجل ترحيبا شديداً ، واستعداداً أشد ! .

. . . .

. . . .

عكف عزيز الجبالى - بعد لقائه مع محسن ممتاز ، وقد عرف الآن كل شىء عن الفتى - على وضع دراسة مفصلة عن الحالة. . . خرج منها بأن الفتى ، بالرغم من كل مايمكن أن يؤخذ عليه ، لم يلق العناية الكافية ، بل والواجبة !!

اكتشف أن الفتى منذ أن سافر إلى اسرائيل ، لم يتلق أى نوع من أنواع التدريب . . . ذلك أن محسن ممتاز عندما أرسله فى بداية النصف الثانى من عام ١٩٥٥ - أى منذ ثلاث سنوات كاملة - كان كل ماطلبه منه أن يبنى ساتره ، وأن يعيش وسط المجتمع الاسرائيلى كواحد منه . . . ثم لاشىء بعد ذلك ، لاتدريب ، ولاتوجيه ، ولاحتى احتياجات أرسلت إلى الفتى كى يرد عليها ! . . فكيف نستطيع - والأمر كذلك - أن نقيم قدرات الفتى وإمكاناته التى لم تستغل ولم توجه التوجيه الصحيح ؟ ! .

ثم اكتشف - بدهشة بالغة - أن الفتى لايزال يستعمل وسيلة شديدة البدائية للكتابة السرية ، وأنه منذ عام ١٩٥٦ وحتى ذلك اليوم لايزال يستعمل « ورق الزبدة » فى الكتابة السرية . .. والامر الطبيعى يقول ، انه إذا كانت وسائله فى الاتصال - وهى شديدة الخطورة والأهمية - تتم بهذا الأسلوب البدائى ، فلابد أن تكون قدراته وحصيلته من نفس المستوى . . . فالذنب اذن ليس ذنبه !

وبعد ذلك . . . إذا كان اشتراك اسرائيل فى العدوان الثلاثى ، ثم كل ماتلا ذلك العدوان من آثار على سمعة اسرائيل فى العالم ، مما جلب الكساد فعلا إلى سوق السياحة فيها ، فإن حديث الفتى عن الخسائر التى أخذت تتوالى على الشركة التى انشأها مع المدعو « جدعون شاباتاى » يصبح أمرا منطقيا ، كما يصبح منطقيا ان يتذمر السيد

« شاباتاى » ويفكر فى الانسحاب ، ويصبح منطقيا أيضا أن يستميت الفتى فى إقامة البناء الذى يكاد ينهار بين يديه ، ولم يكن أمامه طريق سوى طلب المال !

وهكذا خرج عزيز الجبالى من دراسته ، بأن رأفت على سليمان الهجان فى حاجة إلى تدريب مكثف وسريع ، كما كان فى حاجة إلى شخص له مواصفات خاصة كى يقوم بالمهمة . . . وإذا كانت شخصية مثل محسن ممتاز هو الذى أعد الفتى فى البداية ، فإن شخصية فى نفس المستوى لابد أن تعيد الاتصال به من جديد ، لتحكم السيطرة عليه من ناحية ، ولتعيد روابطه مع بلده من ناحية أخرى ، ثم تدربه على فنون العمل التى كان يجهلها تماما !

عندما بدأ الحوار بين شريف والى وعزيز الجبالى ، سأل الرجل :

« أنت متحمس للعملية دى ياعزيز ؟ ! »

« أنا شايف انها ممكن تتطور يافندم وتجيب نتائج ممتازة ! »

« طب ماتعمل لى دراسة عليها ! »

« الدراسة جاهزة يافندم ! »

قال عزيز هذا وهو يقدم للرجل ملفاً ليس به سوى ثلاث ورقات مكتوبة بخط اليد ، حوت كل شىء عن الموضوع فى نقط شديدة التركيز . . . ساد الصمت وقد استغرق رئيس هيئة الخدمة السرية فى القراءة ، حتى اذا انتهى ، رفع رأسه نحو الضابط الشاب متسائلا :

« يعنى انت رأيك إننا نستدعيه خارج اسرائيل وندربه ؟ ! »

« وانا عندى اقتراح بدورة تدريبية ممكن ياخدها فى حوالى اسبوع ! »

ابتسم شريف والى قائلا :

« خلاص . حط لنا خطة مكتوبة واطلع أنت دربه ! »

« لأ يافندم ! »

رفع شريف حاجبيه دهشة وأردف عزيز :

« مش أنا اللى حادربه ! »

« أمال مين ؟ ! »

«نديم هاشم ! »

●●●

فتح الباب وأطل منه نديم هاشم هاتفاً :

« تقدر تقول لى أنت عاوز ايه ؟ ! »

تهلل عزيز الجبالى لرؤية نديم الذى كان يكبره سنا ورتبة وخبرة ، لكنه كان صديقاً له ، صاح :

« أهلاً قلب الأسد ! »

اندفع نديم بعد أن أغلق الباب نحو عزيز :

« أيه الحكاية ياعزيز بالضبط ؟ ! »

« انت مش عاوز تسافر بلاد بره ؟ ! »

هتف نديم ممازحاً :

« اسافر علشان اتفسح مش علشان اشتغل ! »

قال عزيز فى جدية بالغة :

« العملية دى ممكن تجيب نتائج هايلة يانديم ! »

« قول لى انت عاوز ايه بالضبط وخلصنى ! ! »

●●●

فى اليوم السابق كان عزيز الجبالى قد حصل على إذن بزيارة بدروم

احدى العمارات القديمة فى حى الزمالك الارستقراطى . . . كانت العمارة مملوكة لاحدى شركات التأمين ، ومنذ بضعة أشهر استطاعت شركة من شركات الأدوية أن تستأجر هذا البدروم من شركة التأمين لاستعمالـه كمخـزن . . . وبـالفعل ، فلقد نقل إلى هذا البدروم ـ والغـريب أن النقـل دائـما ماكان يتم فى جوف الليل ـ عدد كبير من الصناديق والمكاتب القديمة والمقاعد المتهالكة والثلاجات والمواقد . . . اشياء غريبة كانت تنقل بين يوم آخر . . لكن الأغرب ، أن أحداً من السكان لم يلحظ أن موظفى هذا المخزن كانوا وكأنهم أشباح . . . كان هناك موظفون حقا ، لكن أحدا من السكان لم ير أحدهم مرة ، وإن كانوا يشعرون بوجودهم . . . ذلك أن أحدا لم ينتبه إلى أن للبدروم بابا خلفيا يوصل إلى الشارع مباشرة عبر ممر منحدر بجوار العمارة كان فى الأصل جراجا لسيارة واحدة ! .

حصل عزيز على اذن بزيارة البدروم ، وكانت هذه هى زيارته الأولى لهذا الفـريق المـذهـل من العلماء الشبـان الـذين فجروا ـ فيما بعد ـ الأعاجيب العلمية التى أذهلت العدو قبل الصديق ! .

وصل عزيز الجبالى إلى هناك بعد الغروب ، وواجهه ـ لحظة أن دلف من الباب ـ حائط يسد الطريق ، انحرف إلى اليسار حيث نفذ من باب أفضى به إلى ما يشبه مصنعاً صغيراً لأشياء تعبأ فى أكياس . . . كان المكـان رطبـا فالعـمارة مجاورة للنيل ، والمـوائـد متنـاثرة هنا وهناك ، والاضاءة مسلطة فوق المعدات محجوبة بقبعات مصمتة تحجب الضوء عن النـوافذ الموازية للشارع . . . ووسط كل هذا كان فريق العلماء الشبـان يتحـركـون ويتنقلون فيما بين المـوائد والمواقد والثلاجات بلا صوت . . . ما إن خطا نحـو الداخل خطوتين حتى أمسك بتلابيبه

صوت رفيع ثاقب لرجل نحيل أسمر اللون محنى الظهر يرتدى نظارة طبية ويدخن بلا انقطاع ! .

« أهلا سيد عزيز . . . اتفضل هنا ! »

التفت عزيز ليجد نفسه فى مواجهة الدكتور عبد المنعم بسيونى . . . لم يكن أحدهما قد التقى بالآخر من قبل . . . كل ما هنالك أن إشارة تليفونية جاءت فى الصباح إلى دكتور عبد المنعم - أو « منعم » كما يناديه الجميع بلا القاب - تقول ان السيد عزيز الجبالى سوف يزوره فى السابعة والنصف من مساء نفس اليوم: . . وهكذا ، عندما شاهد دكتور منعم وجها غريبا سمح له بالدخول ، أدرك على الفور أنه السيد عزيز الجبالى . . . كما أدرك هذا أن الذى تصدى لمقابلته ، لايمكن إلا أن يكون ذلك العبقرى الذى سمع عنه الكثير ! .

كان الدكتور عبد المنعم بسيونى - ولايزال - واحدا من علماء مصر الأفذاذ فى الكيمياء . . . وعندما عرض عليه إنشاء هذا القسم العلمى طلب مهلة للتفكير . . . غاب أياما وعاد يسأل عن الغرض من إنشاء هذا القسم ، وكان الغرض - بطبيعة الحال - قد شرح له فى المرة الأولى ، لكنه قال إنه جاء هذه المرة كى يسأل عن الغرض الحقيقى -! ! ! - فابتسموا ، وعادوا يشرحون له الأمر بالتفصيل ، وأجابوا عن أسئلته التى بدت ساذجة أحيانا ، ومستفزة فى أحيان أخرى ، حتى إذا انتهى طلب مهلة أخرى للتفكير . . . ثم غاب أسبوعا وبعض اسبوع ، وعاد يسأل إن كان عمله هذا له علاقة بتعذيب الناس والاضرار بهم . . . ولم يكن النفى كافيا ، كان لابد من إدارة حوار صبور مع هذا العالم العصبى توضع الأمور أثناءه فى نصابها

تماما ، وشرح له وظيفة الجهاز على وجه التحديد وفى صرامة وصراحة شديدتين ! . . . ورغم انه فى تلك المقابلة الثالثة ابدى تفهما للموقف ولكل ما قيل ، الا انه طلب مهلة للتفكير أيضاً . . . لكنه بعد أربع وعشرين ساعة ، أعلن موافقته وبدأ العمل! .

. . . .

. . . .

جلس عزيز إلى مائدة صغيرة صنعت من ألواح بعض الصناديق الخشبية . . . كان الدكتور عبد المنعم بسيونى يستعملها كمكتب ، فوق المائدة عشرات الأشياء كان من بينها أنابيب وأوان وميزان حساس ومواد كيمائية ثم موقد فى متناول يده ، بجوار الموقد صندوقان من المعدن ، خصص أحدهما للشاى والثانى للسكر ، وبجوار الصندوقين كنكة ذات لون كالح !

سأله الدكتور منعم وهو يضع الكنكة فوق لهب الموقد :

« خير ان شاء الله ياسيد عزيز ! »

فى اختصار قال عزيز انه يريد حبراً سريا حديثا يصعب كشفه ، فجاءه صوت الرجل الثاقب :

« منين ؟ ! »

«البركة فيكم يادكتور ! »

« البركة فى دين محمد ياسيدى ، بس احنا لسة فى أول السكة ! »

ضحك عزيز هاتفاً :

« كلنا فى الهمّ شرقٌ ! ! »

لكن الدكتور منعم لم يضحك ، وراح يضع السكر والشاى فى انبوبتى اختبار كان يستعملهما ككوبين . . . كانت حرب الأحبار

السرية ، التى برعت فيها - فيما بعد - المخابرات المصرية والاسرائيلية وبزتا فيها كل دول العالم ، تبدأ مرحلة تحد جديدة وخطيرة . . . وكانت اسرائيل متقدمة على مصر بفراسخ بحيث بدا للبعض أنه من المستحيل اللحاق بها . . . وكان فريق العلماء هذا قد ووجه بالكثير من العقبات عندما عهد إليه بإظهار حبر سرى فى خطاب مرسل الى الخارج . . . لم تكن هناك إمكانات ، وربما لم تكن هناك فكرة واضحة عن الأمر كله . . . وهكذا ، وكما بدأت الحرب الخفية بين الضباط الشبان الذين كانوا يمثلون النواة الأولى لجهاز مخابرات عصرى ومنظم ، بدت حرب علمية كان عنفها يتزايد يوما بعد يوم ، خاصة أن بعض هؤلاء العلماء الشبان ، كانوا اذا مانجحوا فى إظهار بعض الكتابات السرية ، يقرءون - بطبيعة الحال - مايظهرون من معلومات فيفزعون . . . ويوما بعد يوم ، راحوا يتمثلون الأخطار التى يتعرض لها وطنهم من جواسيس الأعداء فى الخارج ، وبعض ضعاف النفوس فى الداخل ! .

رفع الدكتور منعم عينيه وأطل من خلف نظارته الطبية متسائلا :

« أنت بتحب الشاى كشرى والا مغلى ؟ ! »

« زى مابتشربه أنت يادكتور ! »

« الحبر اللى عندنا مش بطال بس هم حايكشفوه قريب أكيد ! »

« مفيش حبر جديد ؟ ! »

« عندك وقت قد ايه ؟ ! »

« مش أكتر من اسبوع ! »

« انت وحظك بقى . . . . احنا لسه بنعمل تجاربنا عليه ! »

لكنه تلقى بعد خمسة أيام من الدكتور عبد المنعم بسيونى ، نوعاً

جديداً من الأحبار السرية ، كان بمقاييس تلك الأيام ، معجزة علمية بحق ! .

●●●

فى عصر يوم من أيام شهر سبتمبر عام ١٩٥٨ ، كان نديم هاشم يستعد للسفر إلى ايطاليا مع عزيز الجبالى ، لمقابلة الفتى . . . وفى حقيقة الأمر ، لم تكن « العملية » جديدة عليه . . . فمنذ شهور - قبل مجيء عزيز إلى هذا المكان - كان قد قرأ الملف قراءة مستفيضة ، وكان له رأى فيه . . . وفى جلسته الأولى مع عزيز الجبالى تبادلا وجهتى نظرهما . . . لكنه ، قبل سفرهما ، كان لابد له من جلسة أخرى طالت لساعات مع عزيز ، كى يتزود منه بتفاصيل بدت له على درجة عالية من الأهمية ، خاصة بعد أن عرف عزيز من محسن ممتاز كل ملابسات العملية وظروفها ! .

فى حقيبة نديم حبر سرى حديث لم يسبق لأحد فى الدنيا أن استعمله من قبل ، مع الحبر السرى كانت هناك وسيلة إظهاره بمركب كيميائى . . . عرف نديم وتدرب - كى يدرب الفتى - على أسلوب الكتابة بهذا الحبر واسلوب اظهاره . . . ووسط ملابسه فى حقيبته الصغيرة ، كان يرقد رباط عنق صارخ الألوان ذو نقوش غريبة . . . هو نفسه رباط العنق الذى عثر عليه عزيز الجبالى فى ملف الفتى .

كان نديم - مثل عزيز - مشوقا لرؤية هذا الفتى الذى يعيش فى اسرائيل تحت اسم « ديفيد شارل سمحون » . . . والذى وصلته برقية - قبل يومين - من احدى شركات السياحة الايطالية ، تطلب إليه الحضور لاستكمال الاتفاق الخاص بعدد لابأس به من الوفود السياحية الايطالية ، التى كانت تزمع زيارة اسرائيل قبل حلول الشتاء !

الفصل السادس

رياح الشك

تلقى السيد « ديڤيد شارل سمحون » صاحب ومدير شركة « ماجى تورز » فى تل أبيب ، برقية مطولة من إحدى شركات السياحة فى جنوا تطلب إليه فيها ـ بناء على المفاوضات والمراسلات التى تمت بينهما ـ الحضور إلى إيطاليا لاتمام التعاقد الخاص بثلاثة أفواج ، كل فوج يتكون من مائتين وخمسين سائحا يريدون زيارة إسرائيل قبل حلول الشتاء !

عندما وصلت تلك البرقية كان ديڤيد سمحون يجلس فى مكتبه مستغرقا فيما آلت إليه الأحوال فى شركته . . . تسلمت استير بلينسكى ـ سكرتيرته ـ البرقية بمزيد من الفرح ، اندفعت إلى مكتبه تزف إليه البشرى وقد أشرق وجهها بالسعادة . . . ها هى الأزمة التى تحكمت فى الشركة لشهور ، على وشك أن تحل . . . ما إن دلفت إلى الغرفة حتى تسمرت فى مكانها وقلبها ينخلع حنانا . . . كان ديڤيد مضطجعا فى مقعده إلى الخلف ملقيا بنظراته إلى السقف غارقا فيما كان يغرق فيه من أفكار ، خاصة فى الآونة الأخيرة ، بعد أن انسحب شريكه « جدعون شاباتاى » من الشركة بأسلوب مستفز وغريب وغير كريم . . . فاض قلبها بالحنان وهى ترقب ديڤيد الذى غادره مرحه

واشراقه بعد أن تركه السيد شاباتاى على شفا افلاس حقيقى وسط كساد كان يشتد يوما بعد يوم ، وقتها عرض عليها مخدومها وحبيبها أن تبحث لنفسها عن عمل آخر لكنها رفضت أن تتركه وحده ، اضطر إلى تخفيض مرتبها فقبلت دون تردد . . . لم تكن فى حاجة شديدة إلى المال بعد أن تم زواجها من الميجور « الياهو جادوسكى »،راح ديڤيد يبذل محاولات مستميتة وسط منافسة لا ترحم وفى كل اتجاه دون جدوى . . . وبدلا من نشاطه ذاك الذى اشتهر به ، اصابته كآبة كان يحاول أن يخفيها عنها . . . ظلت فى وقفتها تلك لثوان ، لكنه بدا وكأنه لم يشعر بوجودها ، كانت تحمل البرقية فى يدها وهى تنتفض بالفرح عندما همت إليه جاءها صوته مكدودا :

« ماذا وراءك يااستير ؟ ! »

اندفعت نحوه هاتفة :

« مفاجأة ! ! »

ابتسم ابتسامة باهتة واعتدل فى جلسته :

« هات ما عندك ! »

لوحت بالبرقية أمام عينيه :

« ثلاثة أفواج إيطالية ! »

هم بالحديث فهالت نحوه تزف إليه بقية الخبر :

« كل فوج من مائتين وخمسين شخصا ! »

مد يده نحوها فناولته البرقية وهى تنتفض بالانفعال ، راحت ترقبه وهو يقرأ السطور فى إمعان ، ها هو البريق يعود إلى عينيه بعد طول غياب ، وها هى ابتسامته تلوح على وجهه أخيرا . . . ما ان انتهى من قراءة البرقية حتى طواها ودسها فى جيبه مغمغما :

« يبدو أن الأزمة سوف تنفرج ! »

دارت حول المكتب فى حماس حنون ، قالت فى صوت مفعم بالحب :

« هل أحجز لك تذكرة إلى روما ؟ ! »

دون أن ينظر إليها نهض من مكانه :

« ألا يحتاج الأمر إلى قليل من التفكير ؟ ! »

كاد يصطدم بها فى حركته فسرت فى جسدها رعشة امتدت إلى صوتها فتكسر .

« أى تفكير هذا ؟ ! »

« فى قدرتى على الوفاء بالتزامات هذه الأفواج ! »

خطا نحو الباب فلاحقته :

« ولكن البرقية تقول . . . . »

« ولابد من تدبير بعض المال ، ثم الاتفاق على وسائل نقل الأفواج بعد أن سحب جدعون شاباتاى سيارتى الأتوبيس ، ثم هناك تحديد الأمكنة التى سيزورها الضيوف ! »

هتفت محتجة :

« ولكن . . . ديڤيد . . . ان الـ . . . »

قاطعها فى تأفف :

« ألا تتعلمين أبدا يا صغيرتى ؟ ! »

« إن البرقية تحدد الـ . . . . »

« لقد قرأتها يااستير جيدا وأعرف ما فيها ! »

بدت عليها خيبة الأمل ، واطلت من عينيها نظرة عتاب ، لكنه ستطرد :

« عليك فقط أن تقومى بعملك دون أن تتدخلى فى عملى ! »
قال هذا . . . ثم تركها وانصرف !

. . . .

. . . .

ظلت استير بلينسكى فى وقفتها تلك حائرة وهى تتساءل عما أصاب مخدومها وحبيبها والرجل الذى استطاع أن يخلع قلبها من صدرها كى يعبث به بين أصابعه . . . كان المفروض أن يسعد لوصول برقية مثل هذه التى ستدر على الشركة دخلا لابأس به وتعفيه من اللجوء إلى السيد شارل سمحون ، ذلك المليونير الذى أعطاه اسمه فى الاسكندرية وتعامل معه مثل ابنه والذى تعود ديفيد أن يلجأ إليه كلما ألمت به الأزمات . . . ولكن ، ها هو يتلقى الأمر فى برود يبعث على الدهشة ، أخذت تردد البصر فيما بين مقعده الخالى والباب الذى خرج منه وكانت رياح الشكوك تهب فى صدرها عاتية فهل فى الأمر امرأة أخرى ؟ ! . . . هل هى ماجى سمحون ـ ابنة السيد شارل ـ التى وقعت فى حب الفتى فى الاسكندرية ، ثم راحت تحرضه على الاقامة معهم فى فرنسا بعد أن هاجروا من مصر ؟ ! . . . أم هى امرأة أخرى فى تل أبيب وما أكثر مَنْ يلقين بشباكهن حوله ! ! . . . هل هو انسحاب شاباتاى الذى أصابه بكارثة لم يستطع أن يفيق منها حتى الآن ؟ ! . . . أم أنه يفكر فى مغادرة إسرائيل إلى الأبد ؟ ! . . .

أين ديفيد ؟ !

سؤال كان يلازمها فى أيامها الأخيرة حتى وهى بين ذراعية ، أحست

أن يدا تعتصر قلبها اعتصارا لارحمة فيه ، فغادرت الغرفة وقد اغرورقت عيناها بالدموع !

●●●

غادر رأفت الهجان ـ أو ديفيد شارل سمحون ـ شركته فى شارع يوشع بن نون وقد اصطخبت الأفكار فى رأسه . . . كان ـ الآن ـ يريد الاختلاء بنفسه ، وقراءة البرقية على مهل وحل رموزها وكشف أسرارها . . . هو موقن أنهم يطلبونه للقاء يتم فى الخارج ، لم يكن فى حاجة إلى « مفتاح » يحل به الرموز أو يستجلى به أسرار الكلمات ، فلقد حفظ كل شىء عن ظهر قلب . . . لكنه اليوم ، واليوم بالذات ، يريد التأكد من كل حرف وكل كلمة وكل سطر . . . منذ أيام والرغبة تساوره فى إرسال برقية يطلب إليهم فيها لقاء عاجلا ، وبالرغم من حاجته إلى هذا اللقاء فهو يخشاه ولا يريده . . . تلقى البرقية فى لهفة حقيقية ، لكن لهفته لم تكن لأنه سيغادر إسرائيل فهو الآن يستطيع أن يغادرها وقتما يشاء ويعود إليها عندما يريد ، فكر فى العودة إلى بيته حتى يختلى ببرقيته هناك لكنه لم يستطع ، كان يعلم أن لا أفواج هناك ولا يحزنون . . . لكن عليه أن يتصرف وكأن كل شىء حقيقى . . . مر بمكتب يوسف الأزرع المحامى وتحدث إليه قليلا عما فعله به صديقه جدعون شاباتاى الذى فر من السفينة وهى موشكة على الغرق ساحبا معه مجدافيها المتمثلين فى سيارتى الاتوبيس اللتين كانتا ملكا للشركة . . . هو الآن قادم للتفاوض على استئجار سيارتيه لحمل الأفواج القادمة من جنوا ـ مجرد تغطية لابد منها للبرقية التى وصلت ـ ولقد سئم كل هذا ، سئم حياته تلك ، كما سئم مساومات يوسف الأزرع . . . أى وطن قومى هذا الذى يريدون إقامته وكل منهم ينهش

لحوم اخرين من أجل شيكل أو ليرة . . . خضع فى النهاية لمساومات المحامى الثعلب فهو يعلم أنه لن يستأجر السيارتين ، ولن تكون هناك أفواج ، وأنه سيسافر إلى إيطاليا ويعود مدعيا أن الصفقة لم تتم ، وأن الشروط المعروضة كانت مجحفة . . . غادر يوسف الأزرع وترك قدميه تحملانه إلى شارع « بن يهودا » حيث بنك « هابوعاليم » ـ العمال ـ الذى يودع فيه حساباته المتدنية ، التقى هناك بموظف قدم له البرقية وناقش إمكان منحه قرضا بفائدة معقولة . . . عندما غادر البنك لم يعد قادرا على الانتظار ، عاد إلى بيته وأغلق الأبواب والنوافذ وترك نفسه للصمت والسكون والأفكار الصاخبة . . . استرد أنفاسه واخرج البرقية ومعها نوتة تليفوناته الصغيرة التى لا تفارقه ليل نهار ، هو يحفظ « مفتاح » الكلمات حقا ، لكنه يريد ـ كما علمه محسن ـ أن يتأكد من كل شىء دون شك مهما كان صغيرا ، فى إحدى صفحات نوتة التليفونات أسماء وأرقام تبدو بريئة المظهر . لكنها كانت طريقه إلى حل طلاسم الرسائل أو البرقيات التى تأتيه من الخارج . . . وضع البرقية أمامه ، عاد يتأكد من الأبواب والنوافذ ، ثم بدأ العمل !

. . . .

. . . .

رغم الأزمات التى كان يمر بها ديفيد شارل سمحون ـ أو رأفت الهجان ـ فإنه أصبح ـ بعد ثلاث سنوات ـ شخصية مرموقة فى تل أبيب . . . اتسعت دائرة علاقاته الاجتماعية لتشمل قطاعات عديدة ومتنوعة من ذلك المجتمع الذى أصبح يعرفه معرفة شبه كاملة . . . بل لقد أصبح له دور مؤثر وفعال بعد أن انضم إلى نقابة السياحة وأخذ يتردد على الهستدروت ـ اتحاد النقابات الاسرائيلية ـ وكانت له أفكاره

وأراؤه التى اكتسبت ـ مع الاحترام ـ إعجابا واضحا من الكثيرين . . . كان ديفيد شارل سمحون بعد هذه السنوات الثلاث ، يمارس حقوقه السياسية كأى مواطن إسرائيلى صالح ! !

استقر به المقام فى إسرائيل حقا ، لكن حنينه إلى الوطن مازال يتأجج حارقا فى صدره ، وكان يفكر ، بعد كل ما مر به ، بأنه قد آن الآوان كى يعود إلى مصر ، فثلاث سنوات بذل فيها قصارى جهده تكفى . . . ثلاث سنوات فعل فيها كل ما يستطيع ، لكن شيئا مما كان ينقله من أنباء العدو واخباره إلى الوطن ، لم يكن يرضيهم !

عندما التقى بمصطفى عبد العظيم ، بعد رسالته تلك عن العدوان الثلاثى ، شكره هذا وأثنى عليه وشجعه وطالبه بالحرص أكثر وطلب إليه أن يتبع تعليمات محسن ممتاز بكل دقة ، أعاد عليه ما اتفقا عليه من قبل ، ثم قدمه بعد ذلك إلى واحد من الرجال . . . ومنذ اختفى مصطفى أو نقل تغير الحال . . . أصبح كل ما ينقله إليهم بلا قيمة ، وأصبح يتلقى المؤاخذة تلو المؤاخذة ، والتأنيب بعد التأنيب ، ويعود إلى إسرائيل ، ويستميت فى التصنت والتسمع وتسقط الأخبار والأنباء والأسرار ، ويظن فى بعض الأحيان أنه قد وقع على سر الأسرار ، ويطير إلى الخارج منتظرا أن يسمع كلمة ثناء ، فلا يسمع منهم ـ رجلا بعد رجل ـ سوى أنه كسول لايعمل ، ولايبذل جهدا ، وان حصيلته فى واقع الأمر بلا قيمة . . . حتى أصبح مقتنعا بأنه لايصلح ، وأن هذه هى حدوده وامكاناته . . . فلماذا يبقى إذن ؟ ! . . . ولماذا لايوفرون مزيدا من المال يضطر إلى طلبه ، ويضطرون إلى إمداده به متذمرين ؟ ! . . . ولاداعى لبذل المزيد من الجهد على مشروع كان ينهار يوما بعد يوم لولا جهوده المستميتة !

وإذا كان رأفت الهجان يدرك بوضوح أن انهيار شركة السياحة ، سينسحب بالضرورة على وجوده كله فى إسرائيل ، فإن عودته الآن أصبحت ، فى قلبه وصدره ووجدانه . مطلبا ملحا ولامفر منه !

أصبح رأفت الهجان ـ أو ديفيد شارل سمحون ـ شخصية مرموقة فى تل أبيب ، وكان ـ كلما فكر فى العودة إلى الوطن ، وإنهاء مهمته كاملة ـ ينظر حوله فى حسرة متسائلا : ما الذى سوف يحدث له إذا ما عاد إلى مصر ؟ ! كيف سيعيش ؟ ! . . . ماذا سيعمل ؟ ! . . . كيف سيعامل ؟ ! . . . أكد له محسن ممتاز أن صحيفة سوابقه أصبحت فى خبر كان ، وأنه ـ وقبل أن يغادر مصر ـ أصبح مواطنا شريفا . . . فكيف سيحافظ على هذا الشرف إذا عاد ؟ ! . . . وهل ألغيت صحيفة سوابقه حقا ، أم أنهم سيواجهونه بما اقترفه فى زمن صعب ؟ !

كان رأفت الهجان ينظر حوله فيشعر بالحسرة ، لأنه ـ من خلال علاقاته وصداقاته ومكانته وشركته ـ يستطيع أن يصنع الكثير لبلاده ، ولكنه لايدرى كيف ؟ ! !

أصبح من أصدقائه ومعارفه ضباط وعلماء وموظفون ورجال أعمال ومهنيون وحرفيون وأغنياء وفقراء واساتذة جامعة ومدرسون وصحفيون وأطباء وطيار مقاتل ومهندس فى أحد المطارات الحربية ، وعدد لابأس به من المجندات فى جيش الدفاع الاسرائيلى ، كن يسببن سرطانا عاطفيا لاستير بلينسكى !

كانوا جميعا أدوات فى يده لايعرف كيف يستعملها ، انه يسمع منهم وينقل ما يسمعه إلى الرجال فيبدون غير راضين ، فما الذى يريدونه منه بالضبط ؟ !

كانت استير بلينسكى هى نواة مجتمعه اللصيق وصداقاته القريبة . . . أكتشف وقد ازدادت علاقته بها توثقا وعمقا ، انها قنبلة موقوتة من غيرة عمياء من الممكن أن تنفجر فى أية لحظة دون أى اعتبار مهما كان . . تم زواجها من الياهو جادوسكى منذ عام وبعض عام ، فالقى بها زواجها من هذا المتغطرس إلى ذراعيه أكثر ! !

أما الكولونيل « بيخور شطريت » ذلك الهائل الجثة الذى التقى به مع يوسف الأزرع المحامى فى ذلك العشاء الذى اقيم للترحيب به بعد وصوله إلى تل أبيب بأيام ، فلقد أصبح يجد ملاذه وراحته فى صحبة الفتى بعد أن توثقت العلاقات بينهما . . . هو متزوج من سيدة متسلطة تكبره ببضع سنوات ، وكان يعانى من عشرتها معاناة لم يتحرج من البوح بها لرأفت ، ولكن . . . يكفيه أن يذهب الى الفتى الذى فتح له بيته وأذنيه وقلبه وزجاجات خمره ، فيشرب ، ويتدفق فى الحديث بلاتوقف . . . حتى إذا ماطلع النهار ، نسى كل ماقاله فى اليوم السابق ! !

كان لبيخور شطريت ـ عدا زوجته ـ هموم أخرى خاصة بالوطن ، واراء يخشى أن يجاهر بها . . . وبين يدى « ديفيد العزيز » تعود أن يجد راحته من هذه وتلك . . وكم من مرة هم الفتى بأن يسأل شطريت عن بعض أسرار عمله ـ وكان الرجل يحتل مركزا خطيرا فى قيادة الجيش ـ لكنه دائما ماكان يتراجع ، ويمسك لسانه . . . فهكذا طلب إليه محسن ممتاز ومن بعده مصطفى عبد العظيم الذى أكد له ذات مرة فى إصرار :

« بلاش انت تسأل دلوقت يارأفت ، سيبهم يتكلموا وأنت اسمع وبس ! » .

« طيب ليه إذا كان . . . . »
قاطعه مصطفى :
« لان سؤالك ممكن يكشفك ! »
همّ بالاحتجاج فاردف مصطفى :
« ولأن طريقة السؤال تفرق يارأفت ! »
« إزاى ؟ ! »
« فيه أسلوب معين حانبقى نقول لك عليه ! »
« ماتقول لى من دلوقت ! »
« لأ . . . كل شىء فى وقته ، أنت واجبك الأول والوحيد فى المرحلة دى إنك تدعم وجود الشركة وبس ! »

و . . . ولقد كان على استعداد لأن يتحمل كل شىء من أجل الوطن وأى شىء ، كان على استعداد لأن يستمر حتى يتعلم أويعلموه لولا ذلك الذى حدث منذ بضعة أسابيع فأحال حياته جحيما لايطاق !

. . . .

. . . .

فذات صباح دق جرس التليفون فى بيته وكان الوقت مبكرا ، استيقظ متأففا ورفع السماعة وكان يعرف أنها أستير توقظه حتى يباشر العمل . . . وراحت تغازله وتلاطفه لكنه ظل يتصنع النوم حتى قالت له :
« ولكنك لم تقرأ صحف الصباح »
تساءل متثائبا :
« هل من جديد ؟ ! »
« قبضوا بالأمس على جاسوس يعمل لحساب مصر ؟ ! »

قفز جالسا فى مكانه وكأن عقربا لدغته ، طار النوم من عينيه وسرت فى جسده رعدة وركض قلبه بين ضلوعه فى عنف . . . أراد الحديث لكنه أغلق شفتيه حتى لايفصح صوته عن اضطرابه الشديد ، مضت لحظات صمت فجاءه صوتها معاتبا :
« ديفيد . . . هل عدت إلى النوم من جديد ؟ ! »
قال بصوتٍ متناوم لامبال :
« أى جاسوس هذا ؟ ! »
« سائح المانى شك فيه رجال الموساد ! »
« انهم يشكون فى أمهاتهم ! »
«ولكنهم أوقعوا به متلبسا ! »
« ان تلفيق التهم هو سمة هذا العصر الملعون ياصغيرتى ! »
« ولكنه أدلى باعترافات كاملة ! »
سرت البرودة فى أوصاله فارتجف :
« ماذا قال ؟ ! »
« قال انه يعمل لحساب مصر ، وان هذه ليست هى المرة الأولى التى يزور فيها إسرائيل للتجسس ! »
تصنع التثاؤب فى محاولة مستميتة لأن يتمالك نفسه قائلا :
« مسكين هذا الرجل ! »
صاحت فيه مُزمجرة :
« مسكين ؟ ! »
« لأنه اختار المهنة الخطأ ! »
« إن له شركاء آخرين ! »
اخترقت كلماتها الأخيرة صدره كنصل حاد . . . حاول الحديث فلم

يستطع ، تدفقت استير فى الحديث وهى تنقل له مانشرته صحف الصباح جميعا فى الصفحة الأولى لكن عقله كان قد سافر إلى بعيد . . .

استطاع بعد جهد أن ينهى المكالمة مغمغما بأنه سيكون فى المكتب بعد قليل ، اعاد السماعة الى مكانها وقد غاضت دماؤه وتثلجت اطرافه وتكاثفت شكوكه واضطرب وجدانه وانهمر فى رأسه طوفان بلا نهاية من الأسئلة :

فهل يعرفه هذا الجاسوس ؟ ! هل كان ـ مثلا ـ يحمل إليه رسالة ما من القاهرة ؟ ! . . . وهل سيعترف باسمه ؟ ! . . . مضى الفتى يفكر ان كانت النهاية قد جاءت على حين غرة لتأخذه دون خطأ جناه ؟!

ذات مرة ساورته الشكوك فافضى بها إلى مصطفى عبد العظيم فى إحدى زياراته للخارج ، أكد له مصطفى أنه من المستحيل أن يذكروا اسمه لأحد مهما بلغت درجة ثقتهم فيه ، ألح على مصطفى بشكوكه ومخاوفه فسأله الرجل :

« تفتكر يارأفت ان انت الوحيد اللى لمصر فى اسرائيل ؟ ؟! »

« لأ طبعاً ! »

« طيب . . . احنا قلنا لك اسم حد منهم ؟ ! »

عندما قرأ الجرائد اليومية ـ وكان يتقن العبرية الآن إتقانا تاما ـ لم يجد لهذاالجاسوس صورة ولااسماً . . . قال أحدهم فى الهستدروت عندما تساءل فى براءة عن اسم الجاسوس إن عدم ذكر الاسم أو نشر الصورة يرجع الى أن رجال الموساد يتتبعون شركاءه . . . عاش أياما بعدها فى رعب قائم ، ثم كانت تلك الليلة التى جاءه فيها جدعون شاباتاى ـ ودون مقدمات ـ يطلب فض الشركة ويطالب بنصيبه فيها ، وقع فى

مأزق ولكن ما كان يعنيه هو لماذا يفعل جدعون هذا ، وبهذه الصورة ، وفى هذا الوقت بالذات ؟ ! . . . لم يكن أمامه سوى التفاوض والتنازل ، فتنازل عن الكثير لكن الرجل ركب رأسه وأصر على موقفه قائلا فى نغمة ساخرة اعتصرت قلبه : انه إذا كان « ديفيد » قد عثر على أب مثل شارل سمحون يملك مالا يمده به كلما احتاج إلى مال ، فانه لم يكن يملك سوى رأس ماله هذا الذى كان يتآكل فى الشركة يوما بعد يوم . . . وهكذا انتهى الأمر بينهما ذات ليلة فى مكتب يوسف الأزرع المحامى كما بدأ فى نفس المكتب !

فلماذا جاء انسحاب جدعون شاباتاى بعد الاعلان عن القبض على هذا الجاسوس ؟ ! . . . وهل كان الأمر مصادفة أم أن الرجل عرف شيئا فآثر الانسحاب بعيدا عن مواطن الشكوك ؟ ! . . . وإذا كان الأمر مصادفة ، فهل كانت مصادفة أيضا أن الكولونيل « بيخور شطريت » لم يلب واحدة من دعواته إليه وهو الذى كان يهرول إليه كلما دعاه ، وكان كثيرا مايأتيه دون دعوة ؟ ! . . . وهل كانت مصادفة أنه ـ منذ ذلك اليوم المشئوم ـ لم يُدْعَ إلى العشاء مرة ، ولم يسع إليه أحد ؟ ! . . . بدا له الأمر وكأن الجميع هجروه فيما عدا استير التى كانت تذوب فيه حبا . . . فهل كان هذا الذى تبديه له حبا ، أم أنهم طلبوا إليها ان تستمر فى تمثيل دورها معه حتى تحين اللحظة المناسبة للإيقاع به ؟ !

. . . .

. . . .

وها هى رموز البرقية تفصح عن نفسها فى وضوح . . . عليه أن يطير

إلى روما فى الثامن عشر من الشهر كى يبقى فيها ليومين ، ثم يسافر بالقطار إلى جنوا فى صباح اليوم الثالث ، وينتظر هناك شخصا يرتدى رباط عنق ذا الوان صارخة وخطوط متشابكة تتداخل وتدور حتى تصنع فى النهاية رسما لقارب صغير . . . فى جنوا عليه الا يفعل شيئا سوى الانتظار حتى يلتقى به من يرتدى رباط العنق هذا ، ويوم اعطاه محسن ممتاز رباط العنق قال له :

« الكرافته دى يارأفت مفيش منها غير نسخة واحدة بس غير دى ، والنسخة دى عندنا . . . لازم تحفظ الألوان وشكل الرسوم لكن ماتلبسهاش أبدا . . . واذا فرض وكان اللى جاى يقابلك جديد عليك ، حاتلقاه لابس النسخة الثانية . . . وأول ماتتقابلوا حايسألك الساعة كام ، حاترد تقول له ايه ؟ ! »

« خمسة تحت الصفر ! »

« حايقول لك يظهر ان الدنيا حر قوى ! »

« إذا قال كده بأى لغة ، أنفذ كل اللى يطلبه منى من غير مناقشة ولاحوار ! »

معنى هذا أنه سيلتقى بشخص جديد ، معناه أن الحوار سيتكرر وسيسمع نفس الكلام ويتلقى نفس التانيب والمؤاخذة !

هو اليوم فى أشد الحاجة إلى المال من أى وقت مضى ، ولابد له أن يطلب مالا ، ولسوف يطلب ولسوف يتذمرون ولسوف يناقش ويفند ويقدم الأوراق والمستندات ، ولسوف يقولون إنه لايتحرك كما ينبغى ولايجلب من المعلومات مايساوى كل هذا الذى ينفقه ، وأن حصيلته ضعيفة ومعلوماته منشورة فى الصحف . . . و . . . وهو قد مل هذا ، مل حاجته الملحة الى المال ، ومل كثرة طلبه له ، ومل تذمرهم ، كما

مل اتهاماتهم ودفاعه عن نفسه . . . وهو اليوم ، موقن أشد مايكون اليقين أنهم فى مصر عادوا ينظرون إليه نظرتهم الى نصاب أو محتال . . . وحتى هذا لم يعد يعنيه ، ولسوف يعفيهم منه تماما . لأن ما يعنيه الأن أن يطرد حبل المشنقة عن مخيلته . . . ذلك الحبل المتأرجح دائما فى أحلامه . . . وما من ليلة أغمض فيه عينيه إلا تراءى له حبل المشنقة مداعبا خياله . . . بلغ به التوتر حدا أدى به إلى أنه اذا ماقبل فتاة ، قبلها مفتوح العينين ! !

لا . . .

لن يطلب مالا !

ولن يسمع تأنيبا !

ولابد أن ينتهى كل هذا ، فهو يريد العودة الى وطنه !

هكذا اتخذ رأفت الهجان قراره ، فطوى البرقية ودسها فى جيبه ، وغادر البيت لايلوى على كل شىء !

●●●

عندما طرح عزيز الجبالى اسم « نديم هاشم » على رئيس الخدمة السرية ، لم يكن اقتراحه آتيا من فراغ ، فلقد كانت الأيام التى انقضت منذ أن التقى بصورة الفتى فى ملف وبضعة أسطر فى ليلة من ليالى يوليو الحارة ، وحتى وصول محسن ممتاز فى النصف الأول من أغسطس ، كانت كافية لأن يقرأ الملف كلمة كلمة ومرة بعد مرة . . . ذلك الفتى الذى كانت صورته تناديه فى غموض لم ينكره ولم يحاول أن يخفيه عن نفسه . . . بل نحاه جانبا ، راح يدرس كل ما كتب فى هذا الملف ، ويضع تلك المعلومات التى أرسلها رأفت فى ظروفها الموضوعية . . . كى يأتى تقييمه للفتى على أكبر قدر ممكن من

الدقة . . . حتى إذا جاء محسن وقص عليه قصة رأفت الهجان ، أصبحت الصورة أمامه واضحة أشد ما يكون الوضوح .

أدرك عزيز الجبالى فى وقت مبكر ، وهو لايزال يخوض شواطىء هذا المحيط المتلاطم من العلوم والغموض ، أن « المعرفة » هى سلاح المستقبل . . . وأن الدول الصغيرة ـ مثل مصر ـ لاقبل لها بمواجهة اطماع الدول الكبيرة بالسلاح والعتاد . . . وأنها ـ بالتالى ـ لاتستطيع الحفاظ على استقلالها ، أو احتلال مكانتها فى المجتمع الدولى ، ولامجابهة هذا العصر المجنون الذى تخوض البشرية فى غماره ، إلا بالمعرفة . . . هذه « المعرفة » التى كان من أشد الأمور وضوحا أمام عينيه ، أنها سلاح إسرائيل الرئيسى ، لا فى تغلغلها فى المجتمع الدولى فقط ، ولكن فى تغلغل رجالها ـ من اليهود فى كل الأمم ـ داخل أجهزة الدول الكبيرة ، بل وفى مناصبها الحساسة ! !

وإذا كانت الغالبية العظمى من هؤلاء الأصدقاء الذين يمدوننا بالمعلومات عن إسرائيل ـ ومنهم من كان لايستهان بقدراته ـ ليسوا أكثر من زائرين لها لأيام أو لأسابيع قليلة . . . فإننا فى حاجة الى ركيزة فى قلب بيت العدو ، إلى عين تعيش فى الداخل ، عين ترى وترصد وتحلل ، وأذن تسمع وتتسمع وتنصت . . . وإذا كان الفتى قد استطاع ـ دون تدريب علمى أو تجهيز كان ضروريا ـ أن يحصل على معلومة مثل خبر العدوان الثلاثى قبل وقوعه ، وبهذا التفصيل المذهل ، بالرغم من كل ما أحيطت به هذه المؤامرة من سرية . . . فما الذى يمكن أن يفعله إذا تعلم وعرف ودُرِّب ؟ !

كانت الآمال تداعب خيال هذا الضابط الشاب مداعبة جعلته يبنى

تصورا شامخة من المعلومات والمعرفة عن العدو . . . فانطلق ـ لايلوى على شىء ـ لتحقيق أحلامه وأماله . . . ركيزته الأولى فى كل خطواته : رأفت الهجان !

وضع عزيز هذه الحقائق نصب عينيه ، ثم انطلق بعد ذلك إلى تقدير الموقف !

كان هناك ـ أول مافكر فيه ـ ذلك الاحساس العاطفى الذى اعتراه تجاه الفتى وقصته ، والذى واجهه فى وضوح وصرامة وقسوة . . . وإذا كانت « صورة » الفتى ثم بعد ذلك قصة حياته ، قد فعلتا به كل هذا الذى فعلتاه . . . فما الذى يمكن أن يحدث لو أنه التقى به وجها لوجه ؟ !

هذا الاعتبار وحده كان كافيا لأن يلغى فكرة لقائه « هو » بالفتى ، فإذا ما أضفنا اليه أن واحد من أهم دروس الاستاذ اسماعيل ـ التى ضغط عليها وألح وراح يكررها كى يعيها هؤلاء الضباط الشبان وعيا كاملا ومطلقا ـ كان هذا الدرس يقول : « إذا ما أصبحت ضابط حالة ، فلسوف تظل إلى الأبد ضابطا لهذه الحالة ! » . . . وكان معنى هذا أن ضابط المخابرات إذا ما أقدم على « عملية » ما ، أو صنعها ووضعها موضع التنفيذ ، فانه سوف يظل مرتبطا بها إلى الأبد . . . ذلك أن أحدا غيره لا يمكن أن يلم بكل الظروف الموضوعية والنفسية والسياسية لهذه الحالة وتطوراتها واحتمالات نجاحها أو فشلها ، مثله . . . الدليل العملى الذى لمسه بيده ، هو أن الذين تولوا أمر رأفت الهجان دون معرفة سابقة بكل الملابسات والظروف التى أحاطت به ، تضاربت أقوالهم عنه ـ دون حسم محدد ـ فيما بين مؤيد ورافض معارض . . . حتى هو نفسه ، رغم ذلك التعاطف الخفى مع

الفتى ، لم يستطع أن يبت فى الأمر ويتخذ قرارا نهائيا ، إلا بعد أن جلس إلى محسن ممتاز !

وعلى ذلك . . . فان عزيز الجبالى ـ دون أن يعرف كم من السنوات سيظل ضابطا لهذه الحالة ـ أراد أن يضع القاعدة موضع التنفيذ . . . ومهما كان الأمر ، هو أو غيره من الرجال ، فلا بد أن يظل المسئول عن رأفت الهجان ، مجرد « فكرة » فى ذهن الفتى لا تتجسد إلا فى خياله صرحا شامخا ومهيبا . . . « فكرة » تستطيع أن تكبح جماحه وتتعامل معه ومع قدراته !

واذا كانت شخصية محسن ممتاز . . . كان لها هذا التأثير السحرى على الفتى ، فإن تلك الشخصية التى سيجسدها خياله ، لابد وبالضرورة ، أن ترتبط ارتباطا وثيقا بشخصية محسن . . . وبناء عليه ، فلقد كان مطلوبا للقاء رأفت الهجان والالتقاء به وفهمه ومواجهة تمرده وكبح جماحه ثم من بعد ذلك تدريبه والسيطرة عليه ، شخصية معادلة لشخصية محسن حتى يستطيع صاحبها أن يتعامل مع الفتى كما ينبغى أن يكون التعامل !

وهكذا . . . لم تكن مصادفة بالطبع ، أن عزيزا فكر فى « نديم هاشم »

●●●

كان نديم هاشم من ذلك الرعيل الثانى من جيل رجال المخابرات المصرية ، هؤلاء الذين تم اختيارهم قبل التنظيم وبناء على ملكاتهم وكفاءاتهم الشخصية وقدراتهم الذاتية ، حتى يواجهوا ما كان الوطن

يواجهه من مؤامرات ومعارك خفية وعنيفة فى تلك السنين !

هذا جيل طُلب إليه أن يمارس العمل اعتمادا على قدراته الخاصة ، وأن يحصل العلم وهو يلهث وراء الأحداث !

كان نديم رياضيا من نوع خاص . . . عرف عنه فى المدرسة الثانوية أنه يمارس الملاكمة والهوكى وكرة القدم والسلة والتنس معا . . نشأ فى عائلة تمارس الفن وترى فيه أسمى أساليب التعبير عن الانسان . وسط اللوحات والألوان تربى . . . كان فائر الجسد قوى العضلات أكولا . . . وعندما قرر أن يمارس الرياضة ، مارسها باحساس فنان مشتعل الخيال !

ذات مرة كان عليه أن ينازل ـ فى حلبة الملاكمة ـ خصما أقوى منه بكل المقاييس ، كان الخصم بطلا معروفا ذا لكمات حديدية لاترحم ولاتخطىء ، ولقد نصحه مدربه بألا ينازل هذا الخصم فالمباراة خاسرة خاسرة ، كما أجمع الاصدقاء ـ وما كان اكثرهم واخلصهم فى تلك الايام ـ على ضرورة تلافى موقعة لامجال للانتصار فيها ، ثم ولأنهم يعرفون أن نديما شديد العناد وأنه لن يستسلم فوق الحلبة ، فلقد رأوا أن المباراة ستكون قاسية عليه . . . و . . . واستمع نديم إلى الجميع بهدوء ، ثم أعلن تصميمه على إتمام المباراة . . . وراح يواصل التدريب والاستعداد ! بينما وضعوا هم ايديهم على قلوبهم إشفاقا عليه من خصمه العتيد .

لكن المفاجأة جاءت مذهلة !

انتصر نديم هاشم بسرعة لم يتخيلها أحد ، بادر بمهاجمة خصمه بعنف لم يتوقعه ، تلقى لكماته فى جلد من قرر أن يكون الفوز من